المكتبة الثقافية
١٠١

أضواء على السِّيَر الشعبية

تأليف
فاروق خورشيد


وزارة
الثقافة والإرشاد القومى
المؤسسة
المصرية
العامة
للتأليف والترجمة
والطباعة والنشر

١٥ يناير ١٩٦٤

المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة.
- تيسر لكل قارئ أن يقيم فى بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة بأقلام أساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب.
- تصدر مرتين كل شهر فى أوله وفى منتصفه.

الكتاب القادم

طبائع النحل

للدكتور
رشاد الطوبى

أول فبراير ١٩٦٤

الثمن ٢ مـ
مطبعة مصر

المكتبة الثقافية

١٠١

أضواء على السِّيَر الشعبية

تأليف
فاروق خورشيد

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة
المصرية
العامة
للتأليف والترجمة
والطباعة والنشر

١٥ يناير ١٩٦٤

توزيع



١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

ت : ٥٥٠٣٢ – ٧٧٧٤١

كلمات

١

يحمل لنا الضمير الأدبى عبر الزمن مجموعات من الأعمال الفنية المتكاملة التى تحكى جهدا كبيرا فى التأليف ، وذخيرة ضخمة من التعبير عن روح الانسان فى صراعه من أجل التقدم وبناء الحضارة وفهم روح الحياة ، بما يثرى وجدانه ، وبما يجدد ثقته بالغد ، ويحشد ايمانه بقيمه الانسانية . يحمل لنا الضمير الأدبى هذه الأعمال المتكاملة على حياء وفى خجل ، كأنما يخفيها عن أصحاب اللغة الذين سيطروا بمفهوماتهم اللغوية على مفهومات الناس عن رسالة الأدب ، ودوره فى الحياة . وظل يخفيها عنهم ، ليحفظها لنا عبر أجيال لا نكاد نعرف عددها على وجه الدقة ، اذ تاه منا ومن

الضمير الأدبى الزمان الذى انحدرت منه هذه الأعمال ، والمكان الذى نشأت فيه أول الأمر ، لتكون تعبيرا حيا عن ضمير عصر وحيوية بيئة . وانما ترك لنا الضمير الأدبى أن نعرف هذا الزمان والمكان ، بالحدس والدراسة والمقارنة ، واستكناه الأعمال نفسها عن سرها وأسرار قومها ، وهذه الأعمال بعد ثرية بما يفسر ويدل ، حافلة بما يرشد ويهدى .

وقد نجا الضمير الأدبى بهذه الأعمال ، بعيدا عن كتب الأدب وعن كتب التاريخ التى تتحدث عن الأدب الرسمى ، كأنما يخفيها عن أنظار جلاديها ، فى قلوب الناس وفى ضمائرهم ، وفى طبعات خاصة لا يعرفها أصحاب الأدب واللغة ، وانما يعرفها أصحاب الفن والتذوق ، الى أن يرتفع وجدان المتلقين والدارسين ، بحيث يفهمون قيمة ما طواه ، وأهمية ما حرص على اخفائه حفاظا عليه ، فيسلمهم فى هذه الأعمال كنوزا وذخائر ، تكشف حقيقة النفس العربية ، وتزيح الستار عن جهود بشرية مخلصة ، تحاول التعبير عن موقف الانسان العربى وجوهره ، وعن حقيقة مشاركته فى اثراء

الضمير البشرى بمحاولات الكشف عن وجدان الفرد ووجدان الجماعة الانسانية بعامة .

وحين يصل الشعب العربى الى هـذه المرحلة من نضجه الفكرى والوجدانى ، التى نعيشها اليوم نتيجة تطورنا الثقافى والفكرى ، ومحصلة صراعاتنا من أجل تحقيق ذاتنا وتحديد مكانها من السمات المتميزة لكل شعب من الشعوب ، حين يصل الشعب العربى الى هذه المرحلة التى يبحث فيها عن نفسه ، مدركا أن كثيرا من الزيف قد وضع بيد مغرضة ، أو بيد جاهلة فى تاريخه السياسى والأدبى تعرقل طريقه الى نفسه ، وتدمر طريقه الى الاتصال بجوهره لتفجير الطاقات الكامنة فيه ، بحيث تكون مشاركته فى الحيـاة الانسانية مشاركة ايجابية واعية ، لا مشاركة التابع لحضارات غيره ، وبحيث تكون حياته الفكرية ، امتدادا طبيعيا لتراث أصيل ، حمـله تطور الأجيال ، وجهد المتفننين من أبناء العربية الذين كانوا دائما على صـلة بالنبض الانسـانى ، يحسونه ويعبرون عنه ويؤثرون فيه .

حين يصل شعبنا العربى الى مرحلة من نضجه الفكرى

تتيح له أن يتخلص من عقدة النقص التى خلفتها له أجيال من الاستعمار والسيطرة الأجنبية ، فيشعر بذاته ، وتتأكد عنده أهميته وقيمته ، وحين يصل به الوعى ، واليقظة الوجدانية بحيث يكون قادرا على مناقشة المسَلَّمات التى استقرت فى ضميره بتوالى الأجيال عن قيمه ومثله الحضارية ، مناقشة تحاول أن تستخرج أحكامها بنفسها ، وأن تكتشف جوهرها بجهدها ، واضعة كل شىء فى محك التجربة ، بحيث لا تستعبد فكرها لمسلّمات عصور التخلف ، وللقضايا التى لا توائم التطور ، والتى تحجب عنها روح الناس ، لتقدم بدلا منها انعكاسات القصور ومفهومات البلاط التى ظلت باقية رغم اندثار النظم السياسية ، مسلّمات معوقة لحياتنا الفكرية .

حين يصل الشعب العربى الى هذا ، يحس بحاجته الى استعادة توازنه ، والتعرف على حقيقة نبضه ، منعكسة على مظاهر تعبيره عن نفسه ، وموقفه من الحياة ، وانعكاس الأحداث الجارية عليه . ويحس أن هذه الحاجة أمر مفروغ منه ، بل هو ضرورة يجب

تحقيقها والانتهاء منها ، لأن كل تأخير فيها انما هو اعاقة حقيقية لجلاء الرؤية ، وسرعة الربط بين الماضى والحاضر ، والتعرف على حقيقة أدبنا الانسانى المعبر عن جوهر الناس وقيمهم .

والنماذج الأدبية النثرية التى حملتها كتب الأدب والتاريخ الينا ، وكذلك الأحكام النقدية والمقاييس البلاغية التى عرفتها كتب النقد والبلاغة وتاريخ الأدب عن هذا التراث النثرى ، جعله محصورا فى مجموعة من الرسائل والخطب ، تتطابق مع مفهوم البلاغة القديمة لواجب النثر الأدبى ودوره ، ولكنها عند النظرة الشاملة اليها ، لا تعدو أن تكون من قبيل اللغة لا من قبيل الفن ، بمعنى أنها استعراض جمالى لجرس اللغة وتركيباتها ، وما يمكن أن يتولد عن هذه التركيبات من موسيقى تعتمد على النغم والايقاع ، ولكنها لا تحمل بعد النغم والايقاع شيئا . والشىء الذى يبحث عنه الفن اليوم ، هو جوهر الانسان ، هو موقفه المتولد عن طبيعته الانسانية ، وهذا الشىء ليس هو ألوان البديع والبيان ، وانما هو موقف الانسان من أحداث عصره .

وقد أرضت هذه النظرة الشاملة الى أدبنا العربى ، التى ننظر فيها الى تراثنا الأدبى من خلال النافذة التى فتحها أصحاب اللغة والبلاغة ، أرضت الأعداء التقليديين للشعب العربى ، فجهد أصحاب الاستشراق فى تثبيت معالم هذه الصورة ، وجعلها بكل تفاصيلها من المسلمات التى تصطبغ بالصبغة العلمية ، حتى يؤمن بها أبناء هذه الأمة ، فينصرفون اليها يحلّلون ، ويفسرون ، ثم يعيدون التحليل والتفسير ، وهم فى كل هذا الجهد يزيدون الشقة بينهم وبين حقيقة جوهرهم . ويؤمنون معهم بأن الشعب العربى شعب لا تعرف عقليته التحليل والتركيب ، وانما هى عقلية تجريدية ، تغرق نفسها فى الجزئيات ولا تقوى على تصور الكليات . أو هو شعب يقتصر دوره الحضارى ، كما يؤكد المستشرقون فى بحوثهم (العلمية) ومنهم المستشرق جوستاف فون جرونيباوم [١] فى كتابه (حضارة الاسلام) على حمل الحضارة اليونانية القديمة الى الحضارة الأوربية .

---

(١) راجع (حضارة الاسلام) تأليف جوستاف جرونيباوم ترجمة الأستاذ عبد العزيز توفيق جاويد .

الحديثة ، دون أن تحمل هذه الحضارة حتى بصمات أصابع من حملوها (١) .

ولكن هذا الحكم لا يرضى أصحاب الفن العربى اليوم ، لأن التسليم به تسليم بتهمة تلصق بماضيهم ، فتنسحب على حاضرهم وتصم مستقبلهم ، ومن هنا كان بحثهم الدائب عن كل ما يثبت هذا الحكم الخاطىء المتعسف ، ومن هنا أيضا كان اهتمامهم بكل ما أهمله أصحاب اللغة من مظاهر الانتاج الأدبى ، وحرص أصحاب الاستشراق على ابعاد الضوء عنه ، والتأكيد على غيره بكل قوة وبراعة .

وتمسّك أوربا بالحضارة اليونانية والتراث الفكرى اليونانى هو تمسك بالجوهر لا بالتفصيل ، بمعنى أن هذا التراث الحضارى الموغل فى القدم لا يعتبره الأوربيون ، نماذج لقوالب التعبير ، وانما يعتبرونه دلالة على قيمة الجوهر الانسانى الذى يبين من خلال

(١) راجع الفصل الثالث من الباب الأول من (فجر الاسلام) للأستاذ أحمد أمين • وبخاصة رأى (اوليرى) فى العقلية العربية •

هـذا التعبير ، وملاحم الأودسـة والالياذة وغيرهما من الملاحم اليـونانية والرومانية ، ليست مهمـة كنموذج يحتذى ، وينسج على منواله فى الآداب المعاصرة ، انما هى مهمة كجوهر يُكتشف ، فيدل عـلى الجـوهر الانسانى وراء الحضـارات اللاتينيـة كلها . وهـذه الأعمال ، لا يمكن أن تتدرج تحت فن أدبى بذاته من الفنون المعروفة اليوم ، ولكنها تحتضن بين طياتها كل الفنون التعبيرية التى يعرفهـا أدب اليوم ، اذ هى عند الحضـارة اللاتينية بدء التعرف عـلى قيمة الانسان ومحاولة تفسير موقفه من الحياة تفسيرا وجدانيا .

وقد جهد أصحاب الحضارات اللاتينة ، لا فى اغفال هذه الأعمال الفنية الكبيرة على اعتبار أنها أعمال تكثر فيها البدائية والخرافة ، وتطل من خلالها الأسـاطير ، وحكايات الآلهة ، وانما جهدوا فى التعرف عليها بالدراسة والبحث والمقارنة المخلصة لتكشف لهم هذه الأعمـال عن سرها ، فأعطتهم الكثير ، وأمدت أجيال أصـحاب الفن من بعدهم بما يثرى الأدب العالمى ، ويزيد كشف الجوهر الانسانى .

وبينما قفز الدارسون الأوربيــون فى محاولتهم التعرف على روح شعوبهم عبر جهود الأفراد المميزين الى الوقوف مباشرة عند الجهود التى تعكس روح الجماعة وتحفظ السمات الفنيــة الأولى لجماعاتهم البشرية فى محاولاتهم التعبيرية . نجد أننا قد سرنا فى طريق عكسى.. فبدل أن نبدأ من حيث يكون ضـــمير الجمـــاعات والشعوب ، بدأنا من حيث كان جهـــد الأفراد المميزين المبرزين ، فعرفنا أصحاب المعلقات ، دون أن نعــرف ما قبل المعلقات ، وعرفنا أصحاب الرسائل والخطب ، دون أن نعرف ما وراء أصحاب الرسائل والخطب .

وان كانت الدراسة الأدبية حتى الآن ترى أنه يكفيها أن تعرف أفرادا ممن اشتهروا فى عصرهم لأسباب قد تدخل فيها قيمهم الأدبية وقد لا تدخل ، فان ما وصل اليه تطورنا الفكرى من ايمان ذاته ، ومن جرأة عــلى مسلّمات تعوق تقدمه ، يجعله يعيد النظر فى ميـــدان البحث ومنهجه ويطالب بالبدء فى البحث عن الأعمــال التى حملها الضمير الأدبى ، وتعينه على الكشف عن جوهر الجماعة العربية فى مختلف أدوار حياتها ، وتتيــح له

التعرف على الفرد العربى ، فى صراعاته من أجل معرفة نفسه .

٢

الضمير الأدبى حمل لنا فيما حفظه من عبث التاريخ نصوصا عديدة من السير والحكايات ، منها ما يعود الى العصر الجاهلى ، بل الى ما يبعد فى الزمن عن حدود العصر الجاهلى الذى نعرفه ، ومنها ما يعيش فى العصر الاسلامى فى مختلف البقاع الاسلامية ، وما يمكن أن تعود كتابته الى عصور قريبة كعصور المماليك .

فتروى لنا كتب (التيجان) و (أخبار ملوك اليمن) [1] حكايات عديدة عن عصور سحيقة فى القدم ، تبدأ منذ عصر نوح عليه السلام ، وتنتهى عند ملوك التبابعة [2] العظام الذين عاشوا فى جنوب الجزيرة العربية ، مكونين حضارات عظيمة ، وممثلين مركزا هاما

(١) راجع (التيجان) لوهب بن منبه و (أخبار ملوك اليمن) لعبيد بن شريعة الجرهمى (طبعة نيودلهى) .

(٢) راجع (التاريخ العربى القديم) تأليف ديتلف نيلون وآخرين ترجمة د. فؤاد حسنين .

من مراكز الثقل السياسى فى عصرهم . كما تحكى لنا كتب السيرة والأنساب وصورتها المتكاملة التى وصلت الينا هى كتاب السيرة النبوية لابن اسحاق ، حكايات متعددة عن الشمال العربى ، تبدأ منذ عصر اسماعيل عليه السلام ، وتصل الى حياة الرسول عليه السلام . ثم تحكى لنا كتب أيام العرب والغزوات ، حكايات عن الأحداث التى تعكس لنا صورا من الحياة الاجتماعية فى غير الجزيرة من الدول التى دخلت الاسلام ، ونجد صورتها المتكاملة فى كتب الفتوحات المتأخرة ، ومن أهمها وأكثرها تقريبا لفكرة الحكاية والقص ، كتاب (فتوح الشام للواقدى) .

كما يحمل لنا الضمير الأدبى ، مجموعات أخرى من الأعمال يتطور فيها من الحكاية العربية ويبتعد ابتعادا كاملا عن شبهة ارتباطه بالتاريخ ، ويقترب اقترابا ملحوظا من فنّية الرواية والقص ، ويمكن ادخاله فى باب الأعمال الأدبية ، التى تتجه الى التعبير عن ضمير الناس ومفاهيمهم للحياة والقدر ، ومن ذلك كتب السير والملاحم وحكايات ألف ليلة وليلة . حتى ليقول باحث معاصر كالدكتور

فؤاد حسنين على[١] : « تمتاز العقلية العربية كغيرها من عقليات الشعوب السامية باعادة تأليف القصص القديمة التى توارثتها منذ أقدم العصور ، واظهارها فى ثوب يكاد يكون جديدا . وكتبنا الدينية ، سواء منها السماوية وغير السماوية ملآى بشتى القصص والأساطير والملاحم المتصلة بالنفس البشرية اتصالا مباشرا ، لذلك أصبح من السهل علينا أن نتعرف الى خلق القصة العربية ، وطريقة العربى فى الافصاح عن نفسه ، ثم الى أى حد نجحت هذه القصة فى العصور الوسطى فى غزو العقلية الغربية ، والتغلغل فى الآداب الأوربية » .ولعل الدكتور فؤاد حسنين كان يشير فى هذه الملحوظة الى الفصل الذى عقده المستشرق الانجليزى (جيب) فى كتابه (تراث الاسلام) مظهرا فيه مدى تأثير الأدب العربى فى أدب القصة الغربى ابان العصور الوسطى .

والواقع أن ادخال هذه الأعمال فى التراث القصصى العربى ، يقابل من الدارسين المحدثين بمقاومة عنيفة ، بزعم أن هذه الأعمال لا يمكن أن تدخل فى باب القصص ،

(١) راجع (قصصنا الشعبى) للدكتور فؤاد حسنين.

لأن للقصص أصولا وقواعد ، لا يمكن أن نجدها فى هـذه الأعمـال التى يدخلونها فى باب الأسـاطير و « الحواديت » غير الفنية ، ويخرجونها بهذا الحـكم من دنيا الأدب . وعلى الرغم من أن فنون الأدب بعامة وفن القصة بخاصة ، رغم وجود القـواعد النقدية والقوانين الابداعية ، لم يكف عن التطور ولن يكف عنه الا اذا كفت البشرية عن الابداع ، وعلى الرغم من أن القوانين النقدية نفسها تتطور باستمرار ، بحيث أن ما نراه اليوم قانونا نقديا متكاملا ، سوف نراه فى الغد صورة متخلفة لا تليق بالانتاج الجديد . على الرغم من هذا فاننا نريد أن نؤكد أن ما نذهب اليه فى هذه الأعمال التى حملها لنا الضمير الأدبى ، ليس هو الشكل من حيث هو مثل يحتذى للأعمال القصصية العربية ، وانما هو الجوهر من حيث هو كشف عن تعبير العربى عن نفسه فى قالب القص ، تعبير يلجأ فيه الى الصـورة والحدث كما يلجأ فيه الى التخيل والرمز ، وانما هو الجوهر أيضا من حيث هو كشف عن ضـمير الشعب العربى كما انعكس فى أعمـاله القصصية ، التى تستتر

وراءها آماله وآلامه ، أحلامه ومخاوفه .

وهذا الموقف الذى يقفه أصحاب الدراسة الحديثة ، من الأدب القصصى العربى القديم ، ليس جديدا على الدارسين العرب ، فمن قبل وقفه الدارسون من أصحاب اللغة وأصحاب العلوم الدينية من هذه الأعمال القصصية . فيورد ابن كثير فى كتابه : (تفسير القرآن الكريم) — « وأما ما يذكره العامة عن البطّال من السيرة المنسوبة الى دلهمة والبطال والأمير عبد الوهاب والقاضى عقبة فكذب وافتراء ، ووضع بارد وجهل وتخبط فاحش ، لا يروج ذلك الا على غبى أو جاهل ردى ، كما يروج عليهم سيرة عنترة العبسى المكذوبة ، وكذلك سيرة البكرى ، والدنف ، وغير ذلك ، والكذب المفتعل فى سيرة البكرى أشد اثما وأعظم جرما من غيرها ، لأن واضعها يدخل فى قول النبى صلى الله عليه وسلم : « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » [1] .

---

(١) أورد السيوطى فى الجزء الثانى من الاتقان : قال الامام أحمد حنبل : « ثلاثة ليس لها أصول ، التفسير والملاحم والمغازى » .

والذى أحنق ابن كثير هذا الحنق كله ، وجعله ينطلق فى هذه المجموعة من الألفاظ الجارحة . هو الأدب الذى راج بين (العامة) وسلب لبّهم فصرفهم عن الأدب المكفن الرسمى ، الذى لا يجدون فيه صدى لما فى نفوسهم من أحلام ، ولا ارضاء لما تريده حاستهم الفنية من رمز وتخييل . وهو يقصد سيرة ذات الهمة وهى التى يلعب أدوارها الرئيسية ، ذات الهمة واسمها فى أوائل السيرة دلهمة وأبو محمد البطال ، وابنهـا الأمـير عبد الوهاب ، وجاسوس الروم عقبة شيخ الضلال ، كما يقصد سيرة عنترة التى تمثل البطولة العربية فى العصر الجاهلى ، وسيرة البكرى التى هى تصوير روائى للفتوحات الاسلامية فى اليمن بقيادة علىّ بن أبى طالب مبرزة فروسيته ومصورة النبى عليه الصلاة والسلام من خلال الأحداث الروائية لهذه السيرة ، ويقصد ابن كثير آخر الأمر سيرة أحمد الدنف ، وعلى الزيبق ، التى هى وثيقة احتجاج أدبية على نظام حكم فاسد ، يعيشه مجتمع مطحون لمجموعة من الحكام الأجانب عن أحلامه وأمانيه .

وموقف ابن كثير يمثل موقف أصحاب اللغة والعلوم الدينية ، بل وأصحاب الدراسة الأدبية (١) الرسمية من هذا اللون من ألوان الانتاج الأدبى الذين لم يعترفوا به ، ولم يقدروه ، لأنه كما هو واضح ، انتشر بين عامة الناس انتشارا سيطر على وجدانهم ، ومسّ قلوبهم ، وامتزجت فيه المعلومات التاريخية والعلمية بمعطيات الخيال والعاطفة . والواقع أن موقف هؤلاء العلماء موقف طبيعى ومفهوم ، فعقلية العالم التى لا تعرف غير المسلمات من الحقائق ، غير عقلية الفنان المبدع التى تفتح نفسه المرهفة أبوابا ونوافذ ، تتجاوز الحقيقة التاريخية والمسلمة العلمية الى ظلال وأعماق أبعد منها بكثير ، وأكثر قربا الى معطيات القلب ومعطيات النفس ، وتستطيع باصرة الفنان الواعية أن تكسو الحقيقة التاريخية والعلمية المجردة ثوبا حيا متحركا تسمع فيه نبضات القلوب ، ويهتز ممزوجا بأمانى الانسان ورغباته ، كاشفا عن جوهره وحقيقته . وللعلماء الحق

---

(١) راجع (ألف ليلة وليلة) للدكتورة سهير القلماوى — الكتاب الثانى (تأليف الكتاب) .

اذن أن يخشوا على الحقيقة من أن تضيع وسط هذه الزحمة من الأحداث ، ووسط هذه الدنيا من التصورات، التى يخلقها خيال الفنان ويصبغها وجدانه . ولكن هذا الذى يخيف العلماء هو الذى يبهج أصحاب الفن ، ويحيى فيهم الأمل ، أن يجدوا فى هذه الأعمال نفسها ما يؤكد مشاركة الانسان العــربى فى محاولة كشف الجــوهر الانسانى .

وان كنا نسلم أن الكثير من الحكايات العربية ليست فى مرحلة من البناء الفنى ، بحيث يمكن اعتبارها أعمالا متكاملة ، الا أننا نضطر الى التسليم حيال السير المتأخرة التى تقدم لنا شكلا متكاملا لأعمال قصصية لها أصول وقواعد ، وتسير على حرفية حقيقية ، تضبطها قوالب تعبيرية ، لابد لنا أن نسلم بأن هذه السير مرحلة من مراحل فن للقصة العربية الذى لم يكف عن التطور لحظة منذ كان مجرد حكاية تروى للتسلية ، أو طرفة تحكى للتفكه، الى أن تصبح خطرا ، بما لها من نفوذ فى نفوس المتلقين من عامة الناس ، بحيث يلتفت اليها ابن كثير المتوفى سنة (٧٧٤ هـ — ١٣٦٣ م .) ولا يجد سلاحا يحاربها به

الا السلاح الأبدى الذى تحارب به كل الأعمال الجادة التى تخيف أصحاب التقليد ، فيسميها (كذب وافتراء ووضع بارد وجهل وتخبط فاحش) وكأنما زعم أحد أنهـا كتب تاريخ يبحث فيها عن الحقيقـة العلمية .. أو السلاح الآخر الرهيب فى اللجوء الى الدين وتجريم المخالفين فى الرأى ، وكأن هذه السير وثائق دينية ، هذه الأعمال التى تتكامل لتخيف فى القرن الرابع أصحاب العلم والأدب التقليدى ، هى فى اعتبارنا نماذج لمرحلة من مراحل فن القصة العربية ينبغى الوقوف عنده بنوع من الاحترام للجهد الذى بذل فيها ، وبنوع من التقدير لمن بذلوا عمرهم فى كتابتها ، ليتيحوا لنا فرصة حقيقية للتعرف على ضمير شعبنا .

وكما حفظ الضمير الأدبى هذه الأعمال رغم ما لاقته من تجاهل ، وما منى به أصحابها من نسيان واغفال ، وزغم ما حرص عليه التقليديون فى كل عصر من محاربتها والقضاء عليها ، فان الضمير الأدبى هو الذى يحتم أن تكون هذه السير هى نقطة التقائنا بمعنى الحضـارة

لدى أمتنا ، والمعبر الذى يقودنا الى التعرف على نفسية العربى فى مختلف العصور وتحت مختلف الظروف .

٣

والسير الشعبية التى أنتجها الخيال والتى نعتبرها ذخيرة أدبية كبيرة ، لم تصل الينا كلها ، وانما ما وصل الينا منها مجموعة قليلة هى : عنترة بن شداد ، وذات الهمة ، وفتوح اليمن ، والسير الهلالية (وهى كثيرة ومتعددة) ، والظاهر بيبرس ، وسيف بن ذى يزن ، وحمزة البهلوان ، وفيروز شاه ، وأحمد الدنف ، وعلى الزيبق ، وغيرها كثير مما أشار اليه كثير من الدارسين ولم نضع أيدينا على مخطوطاتها بعد . حتى ليقول الدكتور فؤاد حسنين بعد أن يذكر بعض هذه السير[١]: « ليست هذه القصص التى جاء ذكرها هنا هى كل تراثنا القصصى الاسلامى ، فدور الكتب ملأى بالمخطوطات التى تدلنا على غزارة الخيال العربى وقوته الخالقة ، وكلما أمعنا فى دراسة هذه القصص والعناية بها تكشف لنا أوجه

(١) راجع (قصصنا الشعبى) للدكتور فؤاد حسنين .

النقص فى الكثرة المطلقة من الكتب العربية التى يدّعى أصحابها أنها دراسات حول الأدب العربى أو عصر منه ، وذلك لأن المتشدقين من هؤلاء الأدباء يجهلون لغات الجزيرة قبل الاسلام ، ولا يعرفون من اللغات العربية الا اللهجة القرشية ، وحظهم من القصص العربى الذى تتصل حوادثه بأدبنا فى الجاهلية الى اليوم قليل جدا » .

والسير الشعبية كانت تطورا فنيا لمراحل فنية أخرى سبقتها فى الوجود ، ذلك أن تاريخنا الأدبى ينقل لنا فى أولى مراحل حياتنا الأدبية أشتاتا من حكايات تدور حول العالم العربى القديم قبل الاسلام (١) ، وربما كانت بقايا أساطير عاشت فى ضمير شعبنا العربى وتناقلها جيلا بعد جيل ، وخاصة ما كان منها يتعلق بملوك جنوب الجزيرة من حميريين وتبابعة ، وما كانت لأعمالهم فى العالم القديم من أهمية كبرى . وفى القرآن الكريم نلمح أصداء لهذه الحكايات فيما جاء بقصصه من الروايات ، كما نلمح فى هذه الروايات أيضا أصداء لحكايات عن

---

(١) راجع (فى الرواية العربية) : عصر التجميع لفاروق خورشيد .

الشمال العربى ، وما تناقلته العرب عن العماليق والجراهمة ، ثم عن ابراهيم وعن اسماعيل عليهما السلام . فالعرب كانت لديهم حكايات هى كما قلنا أصداء لأساطير قديمة ، عرفوها قبل الاسلام ، وسواء أكانت هذه الحكايات قد دونت ، وهو ما نرجحه ، أم لم تدون وهو الفرض العلمى السائد ، فان هذه الحكايات قد وجدت منذ الاسلام فى القرآن نفسه ، ثم فى القصّاصين الاسلاميين كتميم الدارى وغيره ، ثم تسللت هذه الحكايات الى نوع آخر من المدوّنات لتحكى تاريخ الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتاريخ مغازيه ، ثم لتجد لها جذورا تاريخية فيما كان بين العرب قبل الاسلام من أيام ومواقع [1] . وظهر كثيرون من أصحاب المغازى والسير مثل آبان بن عثمان بن عفان ، وعُروة بن الزبير ، وكعب الأحبار ، ودغفل النسابة البكرى ، وعبد الله بن عباس وهؤلاء رووا حكاياتهم عن رواة آخرين مجهولين ، الا أن عملهم هذا هو أول ما عرفناه من مدونات لها

---

(١) راجع (نشأة التدوين التاريخى عند العرب) للدكتور حسين نصار .

ارتباط بهذا النوع من الكتابة ، فى هذه الفترة بالذات يظهر اتجاه عند كبار المؤلفين الى ربط أقاصيصهم التى يحكونها عن معاصريهم بالحكايات القديمة والأساطير المتوارثة ، حتى ليقول السيوطى فى الجزء الثانى من الاتقان فى حديثه عن العلوم المستنبطة من القرآن : « وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السالفة والأمم الخالية ، ونقلوا أخبارهم ودونوا آثارهم ووقائعهم حتى ذكروا بدء الدنيا وأول الأشياء ، وسموا ذلك بالتاريخ والقصص » .

الى أن يظهر المجمّعون لهذا التراث القصصى الضخم حيث يقف ابن اسحاق ، ووهب بن منبه ، وعبيد بن شرية أمثلة على جهـد ضخم كبير فى ربط الأحـداث ، وتجميعها فى عمل متسلسل موحد يخرجون فيه مما فى تراثات العرب من أقاصيص وحكايات وأساطير ، بما هو واقع فى حياتهم فى صدر الاسلام من أحداث . ولسنا فى الحقيقة نعرف طبيعة فهمهم لما يقدمون اذ أن هذه الحركة التجميعية بلورتها شخصية ضخمة عظيمة ، هى شخصية

ابن هشام فيما نحب أن نسميه بعصر التأليف فى الرواية العربية .

وهذه المرحلة .. أى مرحلة التأليف يقدم فيها ابن هشام كتبا مدونة تحت أيدينا الآن نسخ محققة مطبوعة منها ، تدل على الثراء الضخم الذى وقف ابن هشام حياله ، فكرس له حياته ، وقدم لتاريخ القصة العربية أجل الخدمات حينما أعاد صياغة وتأليف كتاب (التيجان) لوهب بن منبه ، (والسيرة النبوية) لابن اسحاق ، (وأخبار ملوك اليمن) لعبيد بن شرية الجرهمى [١] .

والواقع أن عصر ابن هشام كان عصر تحفز وتوثب فى نهضتنا العربية ، وكانت أمتنا فيه تتحفز لتبدأ صفحات خالدات فى تاريخها ، وفى مساهمتها فى الحضارة الانسانية . فنجد فى نفس العصر شخصية ضخمة أخرى كشخصية ابن المقفع تتجه الى التأليف المعتمد على الحضارات التى تعرفت بها أمتنا العربية بحكم الأحداث

---

(١) راجع (فى الرواية العربية عصر التجميع) لفاروق خورشيد .

السياسية التى تلت الاسلام ، والتى سبقته ، فيقدم لنا فيما يقدم من أعمال قد أتمت هضم الثقافة الفارسية والهندية معلما قصصيا ضخما هو كتابه (كليلة ودمنة) (١) وكما أن ابن هشام فى تقديمه لكتب ابن اسحاق ، وعبيد ووهب ، كان يقوم هذه الأعمال بروح عصره ، وبفهم عصره ، ويلعب دورا فى تثبيت المعانى الاسلامية الجديدة ، فقد كان ابن المقفع يقدم الأساطير الفارسية والهندية الموجودة فى (كليلة ودمنة) لتلعب دورا فى تحديد المفاهيم المجتمعية لعصره (٢) . ويحكى مؤرخو الأدب ، أن ابن المقفع قد قتل لعدة أسباب من أولها كتابه كليلة ودمنة الذى اشتم الخليفة فيه روح الثورة والتمرد على نظام حكمه . ولو أن ابن المقفع كان مترجما لهذه القصص وحسب ، لما قتل فيها ، ولكنه فيما نذهب قد أعاد تأليفها بما يعطى معطيات تلائم اتجاهه الفكرى وتسهم فى المشاركة فى بناء المجتمع الذى كان يعيش فيه .

---

(١) راجع (ابن المقفع) للدكتور عبد اللطيف حمزة .

(٢) راجع الفصل الأول من الباب الثانى من (ضحى الاسلام) للأستاذ أحمد أمين .

ومن هنا نذهب الى أن ابن المقفع وابن هشام يمثلان أخطر مرحلة فى تاريخ الرواية العربية اذ هما قد مثلا مرحلة الاقتباس أو التأليف على أسس من تراث معروف متوارث ، أحدهما فى التراث العربى والآخر فى التراث المنقول ، فصانا المرحلة السابقة لهما ، وهى مرحلة التجميع التى مثلها الجهد الذى بذله المترجمون فى اللغات المختلفة ، والرواة فى التراث العربى ، وعلى قمتهم ابن اسحاق ، ووهب بن منبه ، وعبيد بن شرية .

ثم تأتى المرحلة الطبيعية التى لابد منها ، وهى مرحلة الابداع ، وفيها يظهر القاصون المبدعون الذين يؤلفون أعمالا تنبع من ضمير الشعب الذى يعيشون فيه وتعبر عن هذا الشعب تعبيرا مباشرا بكل مكوناته ، وتظهره شيئا حيا متفاعلا متطورا تظهر صراعاته وأحلامه وأمانيه ، وتعبر عن قلقه واضطرابه وحركته من أجل تثبيت مثل بذاتها ، بل لعلها تبرز بحثه عن المثل ، ومحاولته لتوضيحها وبلورتها .. ومن هنا ظهرت السير الشعبية عملا ابداعيا ، يختار له مؤلفوه من القوالب والأبطال ما يلائم القضية

التى يدافعون عنها ، ثم يقدمون فيها عملا له تقاليده الفنية الناضجة المتبلورة .

وكل هذا الذى حكيناه ، انما نريد منه أن نقرر مكان السير الشعبية فى تاريخنا الأدبى ، وأن ننبه الأذهان الى أنها مولود طبيعى لتطور أدبى ، وأنها هى الصورة الحقيقية التى عبر بها الشعب العربى عن نفسه ، ولن نستطيع أن نفهم حقيقة الشعب العربى ومكوناته دون فهمنا لأهمية هذه السير واحترامنا لقيمتها الأدبية . وقد اخترنا من بين هذه الأعمال مجموعة تمتاز بما بينها من وحدة فى الابانة عن مراحل حياة الأمة العربية فى تطورها التاريخى ، كما تمتاز بترابطها من حيث زمن التأليف .. وهى سير : عنترة بن شداد ، وذات الهمة ، والظاهر بيبرس ، وعلى الزيبق ، وأخيرا سيف بن ذى يزن .

والقضية التى نحب أن نقررها هنا ، أن هذه الأعمال وان كانت قد حظيت بشعبية ضخمة ، جعلتها غذاء الناس الفنى فى المقاهى والأسواق ، ودخلت الى ضمير المتلقين من أبناء الشعب العربى فى كل مكان ، حتى عاشت جيلا بعد جيل ، وحتى نسى الناس واضعيها

ومؤلفيها ، وحتى أدخلها الدارسون اليوم فى ميدان دراسة الأدب الشعبى [1] ، وباعدوا بينها وبين الأدب بمعناه المطلق العام ، الا أنها فى حقيقة الأمر ، أعمال أدبية ، وان أدخل عليها تداول العصور ، واختلاف مستويات الرواة وثقافاتهم ، ونظرة أصحاب البلاغة اللغوية المتعالية ، الكثير من التغيير والاهمال ، الا أنها ما زالت عند الدرس الدقيق تكشف بوضوح عن حقائق هامة تدخلها ميدان الأدب رغم كل شىء . ومن هذه الحقائق : —

١ — وجود المضمون الاجتماعى العام ، وراء كل عمل على حدة بمعنى أن كل سيرة من هذه السير انما كتبت للدفاع عن قضية هامة من القضايا العادلة للشعب العربى فى ظرف من ظروف حياته .

٢ — وجود المضمون الفنى أو القضية الانسانية العامة وراء كل موضوع من هذه الموضوعات .

٣ — ترابط العمل من صفحته الأولى حتى صفحته

---

(١) راجع (الهلالية فى التاريخ والأدب الشعبى) للدكتور عبد الحميد يونس .

الأخيرة ، لا فى الموضوع فحسب وانما فى نماء الشخصيات وتطور هذه الشخصيات تطورا طبيعيا على الزمن ومع الأحداث .

٤ — وضوح الشخصيات الرئيسية والفرعية ، بحيث تمثل كل منها موقفا انسانيا محددا وبحيث يخدم هذا التحديد العمل من ناحية الموضوع ومن ناحية المضمون معا ..

ومحاولتنا فى الصفحات التالية أن نثبت كل هذه القضايا انما هى محاولة سريعة لادخال هذه الأعمال الكبيرة فى دنيا الأدب واخراجها من نطاق الدراسات الفلكلورية . ذلك أن هذا يعنى مدّ جذور أعمالنا الأدبية ذات المضمون الانسانى الشامل وذات الطابع الحضارى الذى يُسهم بقضايا فكرية واجتماعية فى التطور الانسانى الى عهود سحيقة تربط واقعنا الأدبى اليوم ، الذى يحاول أن يسهم فى الركب الانسانى من حوله ، بماض عريق أسهم فى تكوين الفن الانسانى ، وفى الدفاع عن الانسان وقيمه على مرّ الزمن ، وذلك أن ادخال هذه الأعمال فى نطاق الأعمال الأدبية ما يردّ على

الدعاوى التى تتهم العقلية العربية بالقصور والوقوف عند الجزئيات والعجز عن النظرة الكلية الشاملة . وذلك أن هذه الأعمال هى التصوير الصادق الحقيقى لبيئة الشعب العربى اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا ، وهى فى ذات الوقت كشف عن حقيقة روحه ، وانعكاس للقضايا الانسانية العامة التى تبنّاها منذ مشاركته فى الحياة الانسانية .

ولن نحاول هنا أن ندخل فى جدل حول مكان هذه السير ، أهى أعمال روائية بالمصطلح الحديث ؟ أم هى ملاحم شعبية كما ذهب بعض الدارسين ؟ أم هى مجموعة من الأعمال الفلكلورية التى تدرس من حيث الدلالة الاجتماعية ، لا من حيث الدلالة الأدبية ، كما يصرّ آخرون ؟ ولكننا سنكتفى بمحاولة التعريف السريع بهذه السير ، ذلك التعريف الذى ينحاز بصراحة الى جانب الكشف عن مواطن وحدة العمل وقيمه الأدبية .

« **فاروق خورشيد** »

سيرة عنترة بن شداد

تعتبر سيرة عنترة بن شداد أول الأعمال التى عرفها تراثنا الأدبى وأطلق عليها اسم السيرة وبطلها عنترة بن شداد شخصية تاريخية معروفة ارتبطت بالشعر الجاهلى وبالقصائد المعلقة على الكعبة التى تعتبر قمة الفن الشعرى الجاهلى (١) . كما ارتبط بالحياة الجاهلية القبلية لما كان لعنترة بن شداد فارس بنى عبس من دور كبير فيما يذكره التاريخ عن قبيلة بنى عبس وحياتها . والسيرة أيضا تحكى أحداثا تقع فى الجزيرة العربية وما يتاخمها ويقع على حدودها من مواطن وبلدان . وتدور هذه الأحداث كلها فى الفترة الواقعة قبل البعثة المحمدية ، وتنتهى آخر أحداث السيرة ببداية عصر النبوة ليسهم الأحياء من أبطالها فى نشر الدعوة المحمدية .

وبينما نجد اشارات فى باقى السير الى أحداث

(١) راجع (حديث الأربعاء) للدكتور طه حسين ج ١

سيرة عنترة بن شداد ، لا نجد فى سيرة عنترة أى اشارة الى سيرة أخرى . ففى سيرة ذات الهمة يشبه كاتبها بطله الصحصاح بعنترة بن شداد حتى ليلجأ لتصوير بطولة الصحصاح وفروسيته الى قوله : « انه لو عاش فى عصر عنترة لجعله من رجاله ولغدا عنترة بن شداد من غلمانه » . وكأنه لا يجد صورة يقرب بها الى أذهان المتلقين مدى قوة بطله وبراعته من هذه الصورة التى يستخدم فيها ما رسخ فى أذهان المتلقين من أمر بطولة عنترة وفروسيته بحيث غدت من الأشياء المسلم بها التى يشبه بها فتتضح الصورة فى الأذهان ، وبينما يشبه كاتب سيرة حمزة البهلوان بطله أيضا بعنترة ، يزداد ظهور تأثره بسيرة عنترة حتى ليشبه فرس بطله بالأبجر حصان عنترة الذى استطاعت السيرة أن تجعل منه هو الآخر بطلا مشهورا يستمد مكانته من مكانة فارسه . وأثر سيرة عنترة ابن شداد فى باقى السير والأعمال الشبيهة لا يبدو فى هذه التشبيهات وحسب ، وانما يبدو أيضا فى طريقة رسم الأبطال ووصفهم وفى تقليد الأحداث التى يجريها المؤلف ليبرز من خلالها ملامح شخصية بطله . فالصحصاح بن جندبة

فى سيرة ذات الهمة يكاد يكون تقليدا كامـلا لملامح شخصية عنترة ، والأمير عبد الوهاب فى نفس السيرة فارس أسود يستعير الكثير من الشمائل والصفات التى عرفت لعنترة . ونفس هذا الحكم يمكن أن يقال على شخصية معروف بن حجر فى سيرة الظاهر بيبرس ، وعلى شخصية حمزة فى سيرة حمزة البهلوان . وهناك أثر آخر فى التأليف الروائى نفسه ، ذلك أن مؤلف سـيرة عنترة بن شـداد استغل شخصية شيبوب التى جاءت ذكرها فى الأخبار التى ذكرتها كتب التاريخ والأدب عن عنترة بن شداد شاعر بنى عبس [1] ، فهو أخوه من آمه اشتهر بالدمامة والسواد وسرعة الجرى ، وكان رفيقا لعنترة بحكم الأخوة وبحكم الصداقة التى نمتها الأحداث بينهما . استغل المؤلف هذه الشخصية فى السيرة استغلالا كبيرا ، وعقد له لواء البطـولة فى كثير من أحداثها ، فأصبح عنترة بن شداد هو رمز البطولة التى تعتمد على المهارة فى استخدام السيف ، وعلى القوة الجسـدية الهائلة ، بينما غدا شيبوب رمزا للبطولة التى تعتمد على

(١) راجع (الأغانى) جـ ٨ ص ٣٩ .

الذكاء وخفة الحركة والجرأة المنقطعة النظير .. وقد قلد كاتبو باقى السير هذه البطولة المزدوجة حتى ليخيل اليك أنها قد غدت تقليدا ثابتا من تقاليد رسم البطل فى السير الشعبية ، فالصحصاح بن جندبة يرافقه عبده نجاح ، وذات الهمة يتبعها مرزوق أخوها فى الرضاعة ، والظاهر بيبرس يشاركه فى البطولة عثمان بن الحبلى مرة ، وجمال الدين شيحة مرة أخرى ، والأمير عبد الوهاب يؤيده بذكائه وخفته أبو محمد البطال . أما حمزة البهلوان فرفيقه عمر العيار .

ولسنا هنا بصدد تتبع أثر سيرة عنترة فى السير الأخرى ، وانما أردنا أن نقرر أولوية سيرة عنترة من حيث زمن كتابتها بما تعكسه من آثار فى الأعمال الأخرى ليتضح سبقها فى التأليف ومكانها فى مقدمة السير من حيث زمن كتابتها [١] .. والنصوص العربية القليلة التى تحدثنا عن السير تبدؤها دائما بذكر سيرة عنترة [٢] .

(١) راجع : (الأدب القصصى عند العرب) للأستاذ موسى سليمان .

(٢) راجع : (شعراء النصرانية) للأب لويس شيخو .

ويحسم هـذه القضية الموضوع الاجتماعى الذى تعالجه السيرة ، فهى ترسم مكان العربى من المجتمعين المتميزين ، مجتمعى الفرس والروم . فبعد أن يحل الكاتب مشكلة بطله عنترة الشخصية باعتراف القبيلة به وبزواجه من بنت عمه عبلة وتعليق قصـيدته على الكعبة تصبح مهمته ابراز فضله كفارس عربى على فرسـان الروم المشهورين ، وعلى فرسان الفرس المعروفين . والواقع أن تكوين بطل السيرة بهذا الشكل أعطى المؤلف فرصة الدفاع عن قضية موقف العرب من الشـعوبية ، فهذا الفارس الذى ينبع من أدنى مراتب المجتمع العـربى اذ كان عبدا يرعى الابل يستطيع أن يدخل أولا مجتمع الغساسنة ومجتمع المناذرة على حدود الدولتين الكبيرتين؛ دولتى الفرس والروم ليؤكد مكانة الفارس العـربى وليهزم معحفنة من أبناء الصحراء أقوى جيوش الغساسنة والمناذرة . ثم يدخل به المؤلف ثانيا الى لقاء الدولتين الكبيرتين مباشرة يشارك فى الأحداث التى تجرى فى ملك كسرى ، والأحداث التى تجرى فى ملك قيصر ، بل هو يستطيع أن يرجح كفة أى من الدولتين الكبيرتين

اذا انضم اليها دون الأخرى ، مثبتا بذلك قيمة الفارس العربى فى المجتمع الدولى من حوله ، ومؤكدا فضل العرب على العجم والروم جميعا . وتكاد تكون هذه هى القضية المجتمعية الهامة فى هذه السيرة ، ولهذا رجّحنا أن تكون هذه السيرة قد كتبت فى عصور متقدمة من تاريخ المجتمع الاسلامى التى كانت الجاليتان الفارسية والرومية فيها ما تزال تحتفظ بمكوناتها وترتبط بعصبياتها ، وتبدو معالم الدولة الفارسية والدولة الرومية واضحة جلية فى مكونات المجتمع العربى ، وما تزال الجاليتان الفارسية والرومية تكونان فئتين لم يتم بعد هضمهما وتمثلهما فى داخل الاطار العربى[١]، ويقف هذان المجتمعان المتميزان بحضارة سبقت الحضارة العربية وتأصلت جذورها فى أعماق أبنائها ، وثبتت تقاليدها تطل برأسها مدلة مفاخرة رغم هزيمة الجاليتين الرومية والفارسية بالسيف وخضوعهم للنفوذ العربى بقوة الفتح ، ويجد العربى نفسه مضطرا حيال هذا

---

(١) راجع الفصل الثالث من الباب الأول من (ضحى الاسلام) للأستاذ أحمد أمين .

التعصب للأصول الحضارية الذى يأخذ شكل الهجوم عليه والتشكيك فى قيمته الحضارية [1] رغم انتصاره ، بجد العــربى نفســه مضطرا الى الدفاع عن نفسه ، بل والدفاع عن قيمته الحضارية قبل الاسلام . سيرة عنترة بن شداد تعكس موقفا حيا فى المجتمع الذى كتبت فيه ولهــــذا رجحنا أن يكون زمن كتابتها متقدما لأن المشكلة التى تشغل السيرة وتشغل المجتمع وقت كتابتها بالتالى ، مشكلة عاشت فى المجتمع العربى فى أولى مراحل تكونه بعد الفتوحات الاسلامية واندثرت تدريجيا مع تعقد المجتمع وتشابكه وتعدد الأجناس الأخــرى التى دخلت المجتمع الاسلامى مساهمة فى توســيع شــقة التعصب الجنسى ، بحيث لم يعد بين العــرب من ناحية وبين أصحاب الأصــول الفارسية والرومية فى جهــة أخرى ، وانما كثرت أطرافه أكثر من هــذا ، وتعددت وتشابكت .

(١) يقول ابن عبد ربه فى العقد الفريد (الجزء الثانى): « سمى العرب (بنى اللخناء) لأنهم من ولد هاجر — وهى جارية — فى مقابل بنى الأحرار — الذين هم العجم من أولاد سارة الحرة .. » .

فعنترة بن شداد اذن من أوائل السير الشعبية التى حفظها لنا التاريخ ، والقضية المجتمعة التى تعالجها هى قضية الشعوبية وموقف العرب من أبناء الأجناس الأخرى . ونحن نعتبرها أضخم هذه الأعمال الشعبية ، لا من حيث حجمها ولا من حيث رصدها لقضية من أخطر القضايا التى شغلت المجتمع العربى وهى قضية الشعوبية وحسب ، ولكن من حيث مضمونها الانسانى العظيم اذ تعتبر بحق أول صرخة فنية يطلقها الضمير الانسانى فى عمل أدبى كبير ضد العبودية وضد التفرقة العنصرية .

وقصة عنترة بن شداد هى قصة عبد تحرر ، ترسم صراعه من أجل المساواة بينه وبين الآخرين فى الحقوق والواجبات وتعكس صراع بطلها العنيف من أجل التحرر من موقف المجتمع المتخلف منه بحكم كونه عبدا ابن أمة ورجلا أسود فى مجتمع البيض . ونحن بفهمنا لسيرة عنترة هذا الفهم نقدم لك تلخيصا كاملا لهذا العمل الكبير اذ يقع فى ٣٥٥٤ صفحة تقريبا يحاول المؤلف فيها كلها منذ البداية — وحتى يضع كلمة الختام — أن يصنع مقياسا آخر يقيس به الناس بغير المولد واللون وهما المقياسان

الذى تعرف فيهما المجتمعات المتخلفة مجال المفاضلة بين الناس اذ يتحدد مكان الفرد بنسبه وبأصله الجنسى ، الا أن كاتب هذه السيرة يحاول أن يحدد معنى الحرية ومعنى الأحرار كمفهوم مضاد للمفهوم المتوارث التقليدى للحرية والأحرار ، فالحرية عنده مسئولية والتزام خلقى أمام المجموع وأمام الفرد الحرّ نفسه ، وبهذا المفهوم تتبلور القضية وتتبلور شخصية البطل أيضا (١) .

يصور المؤلف بطله أسير ذلّ العبودية ، وأسير اللون الأسود رغم فضائله التى تؤهله لمركز الصدارة فى القبيلة ؛ فهو فارس شجاع ، وهو فى نفس الوقت شاعر كبير يملك ناصية الفعل والقول جميعا . ويضع أمامه الصورة المضادة لشخصيات تنتسب الى القبيلة بحكم اللون والولادة معا وهى لا تنتسب الى القبيلة وحسب وانما تنتسب الى أشرف بطونها كشخصية الربيع ابن زيادة الذى يصر المؤلف دائما على نعته بصفة (الطنجير) ويرسمه بصورة ترسم معالم تخنثه وبعده

(١) راجع الباب الثالث من (فن كتاب السيرة الشعبية) لفاروق خورشيد ود. محمود ذهنى .

عن مظاهر الرجولة الكاملة ولجوئه الى أساليب النساء فى التآمر على عنترة ، بل يبعد المؤلف فى هذا التشويه فيجعله يضطر الى لبس ملابس النساء للهروب بحياته ذات مرة .

ثم يضع المؤلف الاثنين فى مجال التنافس فى حب عبلة ، ويخلق من المواقف الروائية ما يظهر الفضائل الكامنة فى شخصية عنترة العبد الأسود ، ويظهر المطاعن واضحة فى شخصية الربيع المدلل الثابت النسب العريق الحسب .

فالشرف اذن لا تكفى فيه الصدفة التى تجعل من انسان ما صاحب فضل بمجرد أنه ينحدر من صلب انسان ذى مكانة ومال ، وانما تفضل هذه الأحداث الروائية فيما تخلق فى مواقفها من مقارنات ، شرفا آخر يأتى عن طريق السمات المتكاملة هى الدليل الحقيقى على الجدارة بالانتساب الى معانى التفوق والسمو . والحر اذن مجموعة سمات تتوفر فى نفسه الانسانية ، وليس مجموعة علاقات تخلقها الصدفة وتكونها الظروف .

ودفاع المؤلف عن هذه القضية يجعله يضع المخالفين

لعنترة دائما موضع الاختبار ، وفى كل تجربة يفقدون حريتهم ولا يحصلون عليها الا بسيف عنترة العبد الأسود فيصبحون بهذا عتقاء سيفه . وهم بحكم شرعة الحرب عبيد له ، وبهذا يثير مشكلة المسئولية ، فهذا الانسان يتحمل بحكم ميزاته وتفوقه ، وبحكم مشاركته الفعلية فى أحداث القبيلة مسئولية لا تقل عن مسئولية أى فرد من أفرادها الذين يتمتعون بحريتهم ، ولكنه فى نفس الوقت لا يتمتع بحقوق الأحرار التى يقصرونها على أنفسهم فى تعصب وغباء . وليس غريبا اذن أن يرسم المؤلف طريقة حصول عنترة على حريته واعتراف القبيلة بصحة نسبه الى أبيه شداد ، فى اثارة روائية لهذه المشكلة بالذات ؛ مشكلة المسئولية والحقوق .

فبعد أكثر من مرة ينقذ فيها عنترة القبيلة ويقتل أعداءها وهم من أشهر فرسان الجزيرة يصر أبوه وتصر القبيلة على الزامه مكان العبيد ، ثم يتقدم عمارة أخو الربيع بن زياد ، صاحب المكانة الكبيرة فى القبيلة يريد أن يتزوج عبلة ، ومالك أبوها موافق على ذلك رغم كثرة الوعود التى أزجاها مضطرا الى عنترة فى أكثر من

موقف أنقذ فيها حيـــاته أو كرامته أو عرضه . وتقف عبودية عنترة دونه والوقوف أمام عمارة حتى يصل الأمر الى أن مالكا أبا عبـــلة يلطم عنترة حين يعترض طريق عمارة ، وما ان يرى العبيـــد هذه البادرة من مالك حتى يهجموا على عنترة جميعا ليأدبوه على تجرئه على سيده ، ويصل الأمر الى مداه حين تتشابك القضية ويتدخل فيها شداد فيهين عبده الأسود عنترة ارضاء لشيوخ القبيـــلة وسادتها ، ويحس عنترة أن هؤلاء القوم لا يعرفون له فضلا فيستسلم للهزيمة ويخلع ثياب الفرسان ويعود الى رعى الأغنام متخليا عن مسئوليته تماما ، طالما رفضت القبيلة الاعتراف بحقه ، ويقول لأبيه شداد : «يامولاى.. افعل بى ما تريد ، واحكم على حكم الموالى على العبيد — والعبد ما له غير مولاه ، ان أبعده أو أدناه . وأنا أشهد على نفسى أنى من اليوم فصاعدا قد امتثلت أمرك ، ولا أقصر عن خدمتك ، ولا أفارق رعى الجمال ، وأكون على حفظ أموالك واعيا ، ولا أركب جوادا ، ولا أجرد حساما مع الأبطال ، ولا أنطق بالشعر أبدا ، ولو شربت كاسات الردى مع الأنذال .. » .

وهذه الكلمات وثيقة استسلام واضحة تقدمها نفس حرة أمام صلابة وغباء المجموع ، فليس من حق هـذا المجمـوع أن يطلب من فرد من أفـراده الدفاع عنه والمشاركة فى حمايته وهو ينكر عليه حقـه الطبيعى فى التمتع بما يتمتع به باقى أفراد هذا المجتمع من حقوق ، وانما يلجأ عنترة الى السلاح الوحيد الذى فى يده وهو الاحتجاج العملى باعلان العزلة عن هذه الحياة ورفض المشاركة فى تحمل أعبائها .

ويمهد المؤلف بهذه الوقفة الى الوصول الى قمة من قمم عمله الروائى فى السيرة والى نقطة تتحول عنـدها مجرى الأحداث كلها حين تخـرج القبيلة فى غزوة من غزواتها تاركة بعض فرسانها لحماية الحى فيهاجمه عدد كبير من الفرسان لا طاقة لهم به ، ولا يجدون لهم خلاصا منهم الا فى عنترة الذى يقف بعيدا عن المعركة بين العبيد حيث أرادوا له هم أن يقف ، ويأبى عنتـرة أن يترك مكانه ، فمن لا حقوق له لا مسئولية عليه ، فاذا ما اشتد الأمـر بهم اضطروا الى الخضوع لشروطه . وعنترة لا يترك مكانه الا بعد أن يعلنوا تحرره ، والا بعد أن

يعلنوا اعترافهم بصحة نسبه الى أبيه شداد ، والا — أيضا — بعد أن يعترفوا بحقه فى الزواج من ابنة عمه عبلة . ووسط الأزمة التى تجد القبيلة نفسها فيها تضطر الى اجابة عنترة الى كل شروطه . وهنا .. وهنا فقط ينزل عنترة الى الميدان فيحقق النصر لقبيلته التى أصبح عنده ما يبرر الدفاع عنها ، ويهزم أعداءها . وقد حصل على حريته وأكد نسبه لأبيه شداد ومكانه فى صفوف الأحرار من أبناء القبيلة .

وهكذا يجيب المؤلف على السؤال الذى أثاره اجابة تؤكد مفهومه للحرية وتؤكد حق كلّ مسئول عن أمن القبيلة ووجودها فى التمتع بكل حقوقه دون ما اعتبار لصدفة النسب أو قيد العبودية .

ولكن الاعتراف المرغم شىء وتأكيد هذا الاعتراف بحيث يصبح حقيقة واضحة فى حياة القبيلة وفى حياة الجزيرة أيضا شىء آخر ، ويتمثل هذا فى العقبات التى تضعها القبيلة أمامه لتحول بينه وبين الزواج من عبلة كما يتمثل فى الغضاضة التى يعامله بها أشراف القبيلة . وتصبح على عنترة مهمة شاقة هى اثبات جدارته كانسان

بمنزلة الحر" التى أصبح يتمتع بها ، كما أصبحت له عند المؤلف مهمة أخرى هى تأكيد السمات التى يراها جديرة بالانسان الحر" .

ويلتقى عنترة فى سبيل تحقيق هذه الأهداف بأكثر من فارس عربى مشهور فيتفوق عليه فى مجال الصراع ، كما يلتقى بأكثر من حدث حساس يكشف عن معدنه وطبيعة خلقه ، فاذا به مسارع الى انقاذ كل ملهوف ، تأسر شهامته الناس كما يأسرهم سيفه ، حتى ليقع شاس ابن زهير ملك عبس فى الأسر وينقذه من الأسر . معروف كريم سبق أن فعله عنترة مع أسرة من بنى كندة آسريه ، ونلمح شاس يقول لنفسه : « هذه فعال عنترة معى ومع سائر الناس وهو ابن أمة فكيف تفعل أنت بضده يا شاس وأنت ابن حرة مكرمة » . وكما يثبت عنترة دالته على بنى عبس أجمعين فان المؤلف يحاول كذلك أن يثبت له هذه المكانة على جميع فرسان العرب المشهورين ليصبح فارس الجزيرة كلها ، ولتكتمل له هذه المكانة لابد له أن يصل الى مرتبة أصحاب المعلقات

من شـعراء الجزيرة المبرزين [1] ، ويبـدأ كفاح عنترة الشاعر محاولا أن يؤكد مكانته الشعرية كما أكد مكانته فى مجال الفروسـية ، ويدبر المؤلف مقابلات بينه وبين أصحاب المعلقات حتى يوضح لنا الكفاح الشاق الذى يخوضه عنترة فى هذا الميدان أيضا ، فحين يلتقى عنترة بطرفة بن العبد يقول له : « يا أبا الفوارس ما أنت الا قد كملت بالشجاعة لكن بلغنى أنك رجل معـلول النسب ولولا ذلك كنا قبلناك وسمعنا ما قلته من شـعرك وفى فصاحتنا أدخلناك » . فالمشكلة فى الشعر هى نفس المشكلة التى واجهته من قبل فى علاقته بعبلة وهى مشكلة النسب ، وكما استطاع عنترة أن يثبت جدارته فى أن يكون عضوا فى مجتمع القبيلة بسماته وصفاته لا بنسبه ومولده ، يعتمد أيضا هذه المرة على نفس هذه السمات التى تعلن أمام المجتمع العربى الذى يجتمع فى مكة أمام

(١) حول عنترة الشاعر راجع : (الشعر والشعراء) لابن قتيبـة جـ ١ ص ٢٠٥ ، و (الأغانى) جـ ٨ و ٩ وخزانة الأدب للبغدادى جـ ١ ص ٦١ .

الشيخ عبد المطلب ليقرر موقفه من عنترة ، جدارته بأن يأخذ مكانه فى هذا المجتمع بل وفى الصدارة منه .

ويلتقى عنترة بأصحاب المعلقات جميعا فى مشهد روائى خلاب ويقفون حياله كما وقف طرفة بن العبد ، ولكنه يحكم السيف بينه وبينهم فيأسرهم جميعا ويقرون له بأولى فضائل العربى الحر وهى الشجاعة ، فاذا ما أطلقهم من أسرهم أقروا له بثانى فضائل العربى الحر وهى الشهامة ، فاذا ما تحاج معهم فى أمر الشعر وقرأ أمامهم قصيدته الكبرى أقروا له بالفضيلة الثالثة عند العرب وهى القول ، ويجتمع أصحاب المعلقات عليه يمتحنونه فى معارف العرب ويعلنون جدارته فى أن يدخل معهم فى مجتمع الخالدين من أصحاب المعلقات .. يسجد الناس من كل مكان فى الجزيرة لقصائدهم المعلقة فى الكعبة ..

وليس — بعد أن يصل المؤلف ببطله الى مثل هذه المكانة — يمكن أن يثور السؤال عن المضمون فى هذا العمل الكبير فهو ولا شك كما قلنا حكاية عبد تحرر .. حكاية تؤكد أن الانسان حر بسماته وخصائصه

وخصاله ، وأن حق الحياة ينبغى أن يمنح لكل جدير به دون ما نظر لأى اعتبار آخر ويؤكد هذا المضمون موقف عنترة من الفارس القبطى (مقرى الوحش) الذى يأسره فى احدى معاركه على حدود الشام فيصبح عتيق سيفه وهو مع هذا يعامله معاملة الأحرار ويعطيه سهم الأحرار فى الغنائم بل يساوى بينه وبين نفسه فى المكانة رغم اختلاف الجنس واختلاف الدين واختلاف المكانة بين الفائز والمهزوم . فاذا ما مات (مقرى الوحش) أفرد لابنه نصيبا كاملا مثله فى ذلك مثل أى فارس عربى الأصل من فرسان الجزيرة نفسها . فعنترة حين يصبح الأمر رهن ارادته لا يستطيع أن يقرّ شريعة العرب بل هو يغيرها بما يتلاءم لفهمه وايمانه بقضية الحرية ونفوره من معنى العبودية . وهذه الظاهرة تتكرر بعد ذلك من عنترة فى علاقته بالنساء اللائى يأسرهن ويحصل عليهن بسيفه اذ هن عنده زوجات لا اماء ، واذا أولادهن عنده أحرار لا عبيد ، بل لقد استغل المؤلف شخصية زبيبة أم عنترة استغلالا روائيا رائعا فى التدليل على قضيته اذ يكتشف عنترة بعد أن أصبح فارسا مهيبا فى

الجزيرة وفى احدى غزواته لبلاد الحبشة أن النجاشى خاله وأن أمه التى يعتبرها العرب أمة « عبدة » هى فى واقع الأمر أخت لملك الأحباش ، فكأنما يريد أن يؤكد أن العشوائية التى تخلق من بعض الناس عبيدا هى عشوائية عمياء لا منطق لها ولا شرعية لوجودها ، وأن هذا الموقف الذى يقفه العرب من ازدراء العبيد يقوم على أساس خاطىء ينتهك كرامات الناس ويذل بشريتهم دون ما اعتبار لحقهم الطبيعى بل والموروث فى الحياة الحرة .

وتصبح سيرة عنترة بهذا أكبر وثيقة أدبية وأول صرخة فنية تدافع عن قضيتى الرق والتفرقة العنصرية ، وتضع حلا لهما مطالبة المجتمع الانسانى باتاحة الفرص أمام الصالحين من أبنائه ليقدموا جهدهم للخير العام دون نظر الى لون أو الى عوامل مفتعلة ترفع بعض الناس وتذلّ بعض الناس (١) . كما تؤكد للانسانية أنها

---

(١) جاء فى بلوغ الأرب للألوسى — وفى الأغانى جـ ٨ ص ٢٤٣ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما وصف لى أعرابى قط فأحببت أن أراه الا عنترة » .

لن تستطيع أن تشرك أبناءها فى المسئولية الا اذا أشركتهم جميعا فى الحقوق .

وان كان المؤلف قد لجأ فى علاجه لمشكلتى العبودية واللون الى نغمة القوة لا الى نغمة الضعف ، فما كان ذلك منه الا استجابة للواقع الاجتماعى الذى تدور فيه أحداث عمله الروائى وذلك هو الجزيرة العربية الذى يعرف أهلها منطق القوة والذى تعود أن يكسب قضاياه بالقصد والجهد لا بالمطالبة واستثارة العطف ..

وتبقى لدينا بعد ذلك أبيات لعنترة تأتى على لسانه فى موقف ملىء بالمرارة ، نوردها كما جاءت فى السيرة بكل ما فيها من أخطاء عروضية وصياغية :

فان عابوا سوادى عند ذكرى
وجاروا من عناد فى ملامى

فلى قلب أشد من الرواسى
ولونى من لون المسك نامى

وما أسمو بلون الجلد يوما
ولكن بالشجاعة والكلام

حاشية : ١ - من الدراسات التى قدمتها المكتبة العربية عن سيرة عنترة .

أ - البطل فى الأدب والأساطير للدكتور شكرى عياد، ولو أن هذه الدراسة ليست دراسة مباشرة عن سيرة عنترة الا أن الدكتور شكرى قد ذكر فى مقدمتها أنها مقدمة كتبها تمهيدا لدراسة سيرة عنترة بن شداد ، والكتاب فى الواقع دراسة هامة لابد منها قبل دراسة السير الشعبية كلها .

ب - عنترة بين التاريخ والأدب الشعبى ، للدكتور محمود ذهنى ، وهى دراسة قدمت لنيل درجة الدكتوراه فى الأداب من جامعة القاهرة ، وطبعت تحت اسم سيرة عنترة .. والدراسة اهتمت بشخصية عنترة الشاعر كما ظهرت فى ديوانه وكتب الأخبار ، وبشخصية عنترة كما صورها الكاتب فى السيرة الشعبية .

ج - فن كتابة السيرة الشعبية لفاروق خورشيد ومحمود ذهنى ، والدراسة تحاول تلمس الملامح الفنية المشتركة فى السير الشعبية على دراسة تطبيقية على سيرة عنترة .

د - هناك فصل كامل فى الكتاب الرائد فى هذه الدراسات - كتاب قصصنا الشعبى للدكتور فؤاد حسنين - عن سيرة عنترة ، وهو فصل هام تعرض بالتلخيص والدراسة لهذه السيرة .

٢ - من الأعمـــال الأدبية المعـــاصرة التى استوحت موضوعها من هذه السيرة ٠

أ - مسرحية عنترة الشـــعرية لأمير الشـــعراء أحمد شوقى ٠

ب - حواء الخالدة للأستاذ محمود تيمور ٠

جـ - أبو الفوارس للأستاذ محمد فريد أبو حديد ٠

٣ - وهناك محاولات عديدة لتقديم هذه السيرة تقديما معاصرا من أهمها :

أ - محاولة للأستاذ أحمد عباس صالح نشرت فى روزاليوسف مسلسلة ٠

ب - محاولة قامت بها دار الهلال وقدمت تلخيصـــا معاصرا للسيرة فى مجـــلدين مع مقـــدمة للأستاذ طاهر الطناحى ٠

جـ - محاولة فى لبنان قدمت السيرة فى مجلد واحد٠

د - محاولة أصدرتها دار المعارف لتقريب الســـيرة لمفاهيم الأطفال ٠

سيرة ذات الهمة

تشغل أحداث هذه السيرة حقبة تاريخية تمتد منذ العصر الجاهلى حتى عهد الخليفة الواثق فى أواخر الدولة العباسية ، فهى من ناحية الزمن تشغل المرحلة التاريخية التى تبدأ بعد انتهاء سيرة عنترة بن شداد . لهذا فنحن نضعها فى الترتيب الزمنى بعد سيرة عنترة . وهناك من الدلائل فى نص السيرة نفسه ما يشير الى أنها كتبت بعد أن أصبحت سيرة عنترة تراثا أدبيا متداولا لا من حيث تشبيه البطل بعنترة تشبيها مباشرا فحسب كقول المؤلف فى الجزء الثانى من السيرة — ص ٧٣— فى وصف الصحصاح على لسان حاشية الأمير حريث :

« ان فرسان بنى كلاب أبطال فى الحرب والجلاد ، وقد نشأ فيها هذا الفارس ألذى ساد وفاق أبطال العرب من ذوى المفاخر والرتب ، وانه اليوم فى طبقة ابن شداد

عنتر » ، ولا لأن بطل السيرة يشبّه فرسه « بالأبجر » فرس عنترة فى أكثر من موضع ، وانما لأن السيرة تقدم بين يديها مقدمة طويلة تكاد تكون سيرة وحدها ، وهى تدور حول الصحصاح فارس بنى كلاب والتى تستمر حتى الجزء السادس من هذه السيرة ونلمح فيها صورة واضحة لعنترة بن شداد . ولم ينس المؤلف أن يرسم شخصية العبد نجاح لتقارب شخصية شيبوب شقيق عنترة ، والملامح التى تتحقق للصحصاح تكاد تكون تأثرا للملامح التى ثبتت لشخصية عنترة نموذج الفـــارس العربى ، الا أن الصحصاح ينتهى نهايته المفجعة بعد أن يتوج ملكا للعرب على يد أمير المؤمنين عبـــد الملك ابن مروان . فتقدم السيرة أحداث العصر الجاهلى حتى حكم مروان بن الحكم فى العصر الأموى فى هذا الجـزء الذى خصصته لسيرة الصحصاح ، والذى هو رغم طول حجمه وكثرة الأحداث فيه تمهيد مفصل لظهور أبطال السيرة الحقيقيين ؛ الأميرة ذات الهمة والأمير عبد الوهاب وأبو محمد البطال الذين يعيشون نهاية العصر الأموى ، ويقومون بالأدوار الرئيسية فى المعارك بين العرب والروم

طوال العصر العباسى ، اذ يصبحون هم حماة الحدود فى مدينة ملطية فى المنطقة الحرجة عند مشارف أرض الروم .
وقد اهتم كثيرون من المستشرقين الذين درسوا العلاقة بين دولتى العرب والروم بهذه السيرة فيقول فازيليف فى كتابه العرب والروم [١] : « ان ابادة جيش ملطية العظيم الذى كان يقوده عمر الأقطع تعد أكبر هزيمة لحقت الاسلام الى العهد الصليبى . وقد تركت هذه الهزيمة أثرها الدرامى فى الملاحم العربية . وبقى هذا الأثر الى أيامنا فى الرواية العربية التركية المسماة : « السيد البطال وفى قصة من قصص ألف ليلة وليلة » .
بينما يقول الأستاذ هنرى جريجوار فى مقدمته لنفس الكتاب [٢] : « انه كان يعتقد أن رواية السيد البطال تحوى عدة تلميحات الى أحداث القرن التاسع التاريخية : « لأنها تشير الى أمر بابك وثورته » ، ثم يقول : « وقد

---

(١) راجع العرب والروم لفازيليف ترجمة الدكتور عبد الهادى شعيرة (ص ٢٧) .

(٢) راجع قصصنا الشعبى للدكتور فؤاد حسنين ص ٥٢ .

اعتقدت أنى أحسنت التقدير حين قلت ان هذه الرواية أقرب الى التاريخ مما كان يظن انها قد ترجع الى أصل عربى من القرن العاشر » ، وكان الأستاذ كنارد قد وصل من ناحيته الى نتائج مشابهة تقريبا . ولكنه لم يقتصر على الفروض ، بل اكتشف فى رواية الفروسية العربية المسماة بذات الهمة مادة وفيرة ماتزال زاخرة بالتاريخ تحللت شيئا فشيئا فى ثنايا الأساطير وانتهت الى مثل السيد البطال . والقصة التى تحت أيدينا ذات الهمة واسمها الكامل (سيرة الأميرة ذات الهمة وولدها الأمير عبد الوهاب والأمير أبو محمد البطال وعقبة شيخ الضلال وشو مدرس المحتال) فليس البطال الا واحدا من أبطال هذه السيرة ، الا أنه واضح أن المستشرقين قد وصلت اليهم نصوص سيرة مستمدة من هذه السيرة اعتمدوا عليها فى هذه الدراسة . ويقول الدكتور فؤاد حسنين[١] :

« وقد أثرت تأثيرا كبيرا فى العالم الاسلامى حتى ان الأديب التركى ابتدع قصة أخرى تستمد من قصصنا

(١) راجع (العرب والروم) لفازيليف ترجمة الدكتور عبد الهادى شعيرة .

العربية خيالها وبعض وقائعها ، وهى التى تعرف باسم سيد البطال » . هى قطعا التى يقصدها فازيليف فى النص الذى ذكرناه عنه .

والذى يهمنا من هذا أن هذه السيرة اعتبرت صدى روائيا للأحداث التاريخية الهامة التى دارت بين العرب والروم فى صراعهما الطويل الذى دار حول السيادة على منطقة البحر الأبيض ، واعتبرت أحداثها نوعا من الوثائق التى يمكن أن تدل الى حد ما على سير الصراع بين الدولتين وأصداء هذا الصراع فى نفوس أبناء المنطقة وأثره على حياتهم . والغريب أنه رغم اهتمام علماء التاريخ الدارسين فى الغرب بجزء من هذه السيرة أو بعمل مبنى عليها ، لم تلق السيرة الأصلية التى تقع فى سبعين جزءا أى اهتمام من الدارسين العرب سواء منهم دارسو التاريخ أم دارسو الأدب .

والواقع أن ارتباط السير العربية بالتاريخ ليس ارتباط حدث ، بمعنى أنها لا تكشف عن التواريخ الخاصة بالأحداث والوقائع ، ولا بما دار فى هذه الأحداث التاريخية من بطولات أو انتصارات وانما

ارتباط هذه السير بالتاريخ أقرب الى أن يكون ارتباطا اجتماعيا ، بمعنى أن السير الروائية العربية انما ترسم لنا المهاد الاجتماعى الذى دارت فى اطاره الأحـــداث التاريخية ، ولا تروى الأحداث لمجرد ذكرها بذاتها . ويكون هذا الافتراض طبيعيا وصحيحا اذا ما وضـعنا فى الاعتبار أن السير الشعبية ليست كتب تاريخ ، وانما هى روايات تكتب عن حقب تاريخية ، فمن الطبيعى أن لا يحرص الكاتب على السمات التاريخية الحديثة للعصر بقـدر ما يحرص كل الحرص على السمات التاريخيـة المجتمعية له ، فيمكننا اذن أن نقول : ان ذات الهمـة رواية تستهدف الكشف عن صراع المجتمع العربى لتثبيت انتصاراته أمام الدولة الرومانيـة الكبيرة التى تتاخم حدوده ، وهى من خلال قصص الفروسية والبطـولة لفرسان بذاتهم تكشف لنا عن السمات المكونة لهـذا المجتمع ، وتحدد لنا صورته وموقفه من الأحـــداث الداخلية والخارجية معا ، فبينما نشهد تدريجيا ما يحدث فى المجتمع العربى من تغيرات تؤدى الى انتهاء الحكم الأموى ، وبدء الحكم العباسى ، ثم الصراعات عـلى

مركز الخلافة قبل هارون الرشيد وبعده ، وسيطرة أبناء فارس المسلمين على أجهزة الحكم تدريجيا واقصاء الجانب العربى عنها ، ثم بدأ دخول العنصر التركى أيام المعتصم .. كل ذلك يدور فى الداخل مغيرا المجتمع العربى تغيرا جذريا تنعكس أصداؤه فى السيرة . نجد أنفسنا أيضا أمام صورة حية لمنطقة الحدود التى عرفت الانتصار والهزيمة وضروب الشجاعة وألوان الحيل والتى كانت الأحداث فيها هى ناقوس الخطر الذى يدق دائما ليدعو أجزاء المجتمع العربى بكل مكوناته أن تلتئم فى صف واحد لمواجهة العدو الذى يهدد الدولة كلها بالزوال .

واذا كنا نستطيع أن نقول ان سيرة عنترة [(١)] تعكس صراع العرب أمام الجاليتين الفارسية والرومية ، فاننا نستطيع أن نقول ان سيرة ذات الهمة تعكس صراع الأمة العربية بكاملها تجاه الغزو الأجنبى ، الموقف الذى يمكن تبسيطه بأنه صراع الدولة الاسلامية أمام دولة الروم المسيحية الكبرى .

---

(١) راجع (فن كتابة السيرة الشعبية) لفاروق خورشيد ، ومحمود ذهبى .

وبهذا نكون قد أوضحنا الهدف المباشر للسيرة والاطار الذى تدور الأحداث فى حدوده ، الا أن سيرة ذات الهمة لها مضمون انسانى كبير لا يقل خطرا عن المضمون الانسانى الذى رأيناه فى سيرة عنترة بن شداد فبينما نستطيع أن نسمى سيرة عنترة الوثيقة الفنية ضد العبودية والتفرقة العنصرية ، نستطيع أن نسمى سيرة ذات الهمة الوثيقة الفنية التى تثبت حق المرأة العربية فى مكان المساواة من المجتمع العربى ..

ويقوم دفاع السيرة عن المرأة العربية على أساسين كبيرين : الأساس الأول هو ابراز خلقيات المرأة العربية التى تحافظ على عرضها وتدافع عنه حتى الموت والتى تعرف الوفاء لمن تحب ، وتؤكد ارتباطها به ارتباطا لا يفصمه شىء ، والتى ترتفع عندها حاسة الأمومة لتطغى على جميع الحواس الأخرى فتكرس نفسها تكريسا كاملا يجعلها تذوب فى كيان الابن محققة فيه كيانها هى . والأساس الثانى هو مساواة المرأة للرجل فيما يعتز به من خلقيات وصفات ، فهى أهل لأن تتجمع عندها صفات الشجاعة والاقدام ، وهى أهل لأن تبرز فى ميدان القتال

بروزا يضعها فى مكان الصدارة ويؤهلها لقيادة الجيوش وزعامة أقوى الفرسان وأشهرهم ، وهى جديرة أيضا بالعكوف على العبادة والتبتل وآداء واجباتها الدينية بما فى ذلك الجهاد فى سبيل الله ليؤهلها هذا لأن تصبح فى مصاف أولياء الله الصالحين .

الأساس الأول يؤكد صفات أنثوية ترتبط بالخلقيات العربية كما ترتبط بالخلقيات الاسلامية وتقدم فيه المرأة أمثلة لما يجب أن يكون عليه دورها فى الحياة ، كما تقدم تأكيدا بأهمية هذا الدور وخطورته فى حياة كيان المجتمع العربى وتثبيت معانى المثالية فى سلوك المرأة العربية .
والأساس الثانى يرفع المرأة العربية من حدود دورها كعنصر سالب فى تكوين هذا المجتمع الى دور جديد تكون فيه المرأة عنصرا ايجابيا لا يقل فى خطورته ولا أهميته عن الرجل الذى يمكن أن يحتكر كل الفضائل الايجابية لنفسه ، وتجعل السيرة بهذا من المرأة نصف المجتمع العامل المشارك فى تحمل التبعات وأداء الواجبات شأنها فى ذلك شأن الرجل ؛ عليها مسئولياته ولها حقوقه .

أما الأساس الأول فنحن نلتقى به فى الصفحات الأولى من الجزء الأول فى سيرة ذات الهمة حين يحدثنا الكاتب عن مولد الأمير جندبة ؛ فأبوه الحارث الكلابى يتزوج من أمه الرباب وما تلبث أن تحمل منه ثم يموت وكان الأمير الحارث بن عامر بن خالد بن صعصعة ابن كلاب زعيم قومه وملكهم كما استطاع بشجاعته أن يهزم الكثير من القبائل وأن يدخلهم فى حكمه وطاعته ، فلما مات ثار على قومه أصحاب الثارات ينهبون الأموال ويسبون النساء ويسوقون الابل والنياق فأشفقت الرباب وكانت حاملا من مثل هذا المصير وأسرعت تحت جنح الظلام تجمع ما لها من أموال وتخرج هاربة من ديار بنى كلاب ومعها عبد لها اسمه سلام ، ويطمع فيها سلام اذ كانت ذات حسن مشهود وجمال بارع فيبعدها عن الطريق عن قصد حتى يصل بها الى حافة غدير وهناك وقد أحس بوقوعها تماما تحت سطوته يراودها عن نفسها . ويركز المؤلف الضوء على هذا الموقف تركيزا يشعرنا بأهميته عنده ، فالمرأة العربية المفجوعة فى زوجها وفى مكانتها والهاربة فى خوف وعجلة تواجه أحد أمرين ،

اما الموت على يد هـذا العبد الذى تملكت منه غرائزه وظهرت فيه سمات الوحش الذى لا يرق لتوسـلات ولا تستثير رجولتـه ذكريات الوفاء ، واما الاستسلام لنزواته حفاظا على حياتها ، ولكنها ترفض فى قوة تستمدها من ضعفها أمام هذه المساومة القذرة ، وتقاوم ذلك العبد مقاومة عنيفة تشهدها صحراء خالية ومياه قليلة تترقرق فى ذلك الغدير التائه وسط الصحراء . وتجتمع عليها كل هذه العوامل : الغضب والخوف والحسرة والمقـاومة البدنية لتسرع بساعة المخاض ، فاثر لطمة قاسـية من العبد سلام تقذف بها الى الأرض فى عنف تتفجر منها الدماء ايذانا بمولد ابنها جندبة ، ويخاف العبد من منظر الدماء فيبعد عنها مذعـورا ، وحين يعود اليها يجدها تحتضن طفلها الوليد وهى ترضـعه ، ويصيب العبد ذعر شديد فيستل سيفه ويقتلها من خلفها تاركا الطفل متعلقا بصدر أمه المخضبة بدمائها . وهذه الصورة تفجأك منذ الصفحات الأولى من السيرة فتلفتك لفتا الى هذا الخط الذى تسير فيه السيرة فى ابرازها لبطولات نسائية تبدأها بهذه البطولة الخلقية الواضحة الدلالة والمغـزى ،

وما يلبث هذا المشهد أن يتكرر بشكل آخر مع زوجة جندبة نفسه فبعد أن ينشأ جندبة فى بيت أعدائه ويعرف نسبه وينضم الى قبيلته يلتقى بفارسة شجاعة تمتاز بالجمال والفصاحة ، تلك هى (قتالة الشجعان) فيتزوجها ويتزعم معها قبيلة بنى كلاب التى تنقذ بزعامته يوما رسل الخليفة عبد الملك بن مروان بما يحملون من أموال كانت قد وقعت فى أيدى مجموعة من قطاع الطرق ، ويسير جندبة الى دمشق حاملا للخليفة أمواله منتظرا حسن الجزاء ولكنه هناك يقابل بجزاء سنمار ، اذ يقع هشام ابن عبد الملك بن مروان فى حب قتالة الشجعان (١) ويحاول أن يغريها بالمال فيفشل ، ويحاول أن يبهرها بمظاهر المدنية والحضارة فى دمشق وهى زوجة البدوى الجلف ولكنه يفشل ، ويعود الى محاولة اغرائها بجاه أبيه الخليفة وبجاهه هو ، وهو ابن الخليفة ، فيفشل للمرة الثالثة ، ولكنه لا ييأس بل يدبر أمرا فى الظلام ، اذ ما يكاد جندبة يعود هو وفرسانه محملين بالهدايا من

---

(١) راجع فى (سيرة عنترة بن شداد) قصة عبلة مع أردشير بن كسرى ملك فارس .

الخليفة متجهين الى منازلهم حتى يدهمه جمع كبير فى كمين أعدّه هشام بن عبد الملك بن مروان ، وتدور رحى الحرب بينه وبين هذا العدد الكبير من الفرسان ، تنتهى بقتل الكثير من رجاله وباختفاء زوجته قتّالة الشجعان التى اختطفها هشام بن عبد الملك . ويقول نجد بن هشام راوى سيرة ذات الهمة فى الصفحة ٣٧ من الجزء الأول :

« فهذا ما كان من جندبة . وأما ما كان من أمر هشام ابن الخليفة فانه لما أخذ قتالة الشجعان ، أقام معها مقدار شهرين وهو يراودها عن نفسها وهى تمانعه وتأبى ذلك وكلما تقرب اليها نفرت منه ، وكلما تبسم فى وجهها عبست وقطبت ، وأخذت تسبه وتشتمه وتنهره ، ولا تدنو منه ولا تقربه . فاغتاظ منها غيظا عظيما ، ولما طال عليه الأمر وخاف من انحطاط قدره بين البشر ، اذا ذاع عنه ذلك الخبر ، اغتاظ منها وقتلها ، ولفها فى ثيابها ، وأخرجها فى دهليز القصر وأمر الجوارى أن يدفنوها فى الليل .

هذان الموقفان يتشابهان فى اثبات فضيلة العفة فى المرأة العربية التى اتخذها أصحاب الشعوبية مطعنا يلغون

من خلاله فى أنساب العرب وأصولهم ، فتحت كل ظرف من الظـروف مهما بلغت شـدته واشـتدت وطأته ، لا تستطيع المرأة العربية أن تبذل نفسها لغير من بذلت له قلبها من قبل ، سواء أكان عبدا وضيعا يهدد بالموت والضياع ، أم كان أميرا وابن خليفة يعد بطيب العيش ورفعة المنزلة ويدل بالسطوة والقوة .

فضيلة العفة اذن هى أولى الفضائل النسوية التى تؤكدها هذه السـيرة للمرأة العربية ، وان كان هذان الحدثان يشيران أيضا الى فضيلة الوفاء ، الا أن هنـاك أحداثا أخرى فى السيرة تؤكد هذه الفضيلة وتثبتها . من ذلك موقف ليلى من الصحصاح والصحصاح فقير معدوم الجاه بعد أن مات أبوه جندبة واستولى على ملكه وماله أخوه عطاف أبو ليلى ، فليلى فى مركز القـوة والغنى ، والصحصاح فى مركز الضعف والفقـر ، الا أن علاقة الحب التى تربطهما ترغم ليلى أن تظل متمسكة بابن عمها الصحصاح رغم كل أنواع القسوة والعنف التى يستعملها أبوها معها ، رغم الجلد بالسياط ورغم المراقبة الشديدة ليل نهار ، ورغم الحط من قدر الصحصاح فى كل مناسبة

واثر كل عمل ، وتظل ليلى الى جانب الصحصاح حتى يثبت رجولته ويحقق لنفسه مكانته ويصبح فى مكان الصدارة بين قبيلته ويسترضى عمه النافر بأعماله وخلقه وشجاعته .. وشبيه بهذه القصة قصة غانم ولبنى فهى تكاد تكون تكرارا لقصة الصحصاح وليلى الا أنها تنتهى بموقف استشهادى من لبنى اذ تؤثر الاستشهاد الى جوار غانم على أن تتركه وتتزوج غيره من أثرياء العرب ، وتقف الى جواره يحاربان وحدهما فرسان أبيها وفرسان خطيبها الى أن ينقذهما الصحصاح من الموت المؤكد .

هذه الصورة من الوفاء ، وهى متكررة فى السيرة ، ترسم لنا أصالة هذه الفضيلة وقيمتها ، أى فضيلة الوفاء ، وهى الفضيلة الأنثوية الثانية التى تثبتها السيرة للمرأة العربية .. أما الأمومة فقد وصل بها كاتب السيرة الى أعلى قممها فى الصورة التى يرسمها لأم الصحصاح التى لا يظهرها المؤلف الا حين يقع الصحصاح فى شدة أو يأتى خبر كاذب عن وفاته ، فيرسم لنا فيها صورة الأم الثكلى التى تستعد لتقدم حياتها فداء لابنها وتبلغ بها

اللوعة عليه ، والخوف أن يصيبه شر أن تستبكى الناس وأن تحرك ضمائرهم وأن تهزّ القارىء هزّاً . ويصل الكاتب الى قمة تصويرها كأم حين يصل الأمر بعطاف أن يزوج ليلى من سيد بنى كندة ، وقد تأكد له وفاة الصحصاح اذ طال غيابه عن مضارب الخيام وترحل ليلى بالفعل مع خطيبها محمولة قسرا ، ثم يستعد عطاف ليلحق بابنته ليزوجها ممن اختاره لها ، والأم العاجزة لا تستطيع الا البكاء والدعاء ، وتصل نغمة بكائها ودعائها الى حد التأثير الروائى فى احداث القصة حتى ليقول الراوى للسيرة فى لهجة تؤكد هذا المعنى فى صفحة ٣٦ الجزء الثالث « فوالله لقد كان هذا البيت الأخير من أعجب الحديث لأنها ما فرغت من هذا البيت الا وقد صاح صايح : الخيل الخيل ، يا بنى كلاب قد أقبلت عليكم عساكر سدت الفضاء وملأت المستوى ولم نعلم ما هى » ولقد كانت هذه عساكر الصحصاح تعود الى قبيلته وقد غدا ملك العرب ، نصبه فى هذا المركز عبد الملك بن مروان لأنه أنقذ ابنته مروة التى وقعت فى أيدى جماعة من الخطافين العرب وحفظ لها الصحصاح كرامتها وعرضها

فكأن ما وصل اليه من مكان ، كان أيضا ، نتيجة حفاظه على عفاف امرأة ما كان يعرف مكانتها .

والصورة الثانية التى نلقاها من صور الأمومة فى هـذه السيرة ، هى صـورة أمامة ، الزوجة الثانيـة للصحصاح مـع ابنهـا المظـلوم ، اذ يمـوت الملك الصحصاح وكأنما موته عقاب له على غدره بوفاء ليلى مرة ، حين زواجه من أمامة ، ومرة بزواجه من أميرة من الجن هى ست الغزلان . اذ حين يعود متجها الى مضاربه فى بنى كلاب ، تهاجمه نمور ثلاثة وتقضى عليه تاركا وراءه : ظالما من زوجته ليلى ، ومظلوما من زوجته أمامة ، التى تلقى بعد موت الصحصاح كل اضطهاد وعنت . ويقول الكاتب فى الجزء ٦ صفحة ٧ مفسرا موقف أمامة : « ثم تباعدوا عن أمامة وأبيها ، وقد قل صبرها ، وخافت من تجبر ظالم فأحسبت عليه بالملك العالم ثم انها أقامت تربى مظلوما فى اليتم والبكى ليل نهار ، وأقامت عـلى هذا مدة من الزمان الى أن جاء الأوان » فأمامة تظل ترعى ابنها وتطالب له بحقه وترضى بكل اتهـام يقوله ابن زوجها ظالم عنها وعن ابنها وحقيقة نسبه لأبيه صامدة

دون أن تقبل مساومة ، حتى استطاع صبرها أن ينتصر لابنها فى النهاية . ونصل الى قمة مظاهر الأمومة فى هذه السيرة عند صاحبة السيرة الأميرة المجاهدة ذات الهمة التى تـرغم على الزواج ارغاما من ابن عمها ظالم ولا يستطيع أن يصل اليها الا حين يأمرها الخليفة ويجتمع عليها كبار رجال القبيلة فتقبل أن ترتبط به دون أن تعاشره ، ولكنه يستطيع أن يصل اليها غدرا بعد أن يدس لها المخدر فى شرابها ، وحين تنجب منه ابنها الأمير عبد الوهاب تقع فى حيرة عظيمة لأن الولد أسود وأبوه أبيض ، ولأنها وهى تعيش بالسيف لا تحب أن يكون هذا الابن دليلا حيا على انتسابها لربات الجمال لا لأصحاب السيوف ، وتتغلب فى هذه المعركة النفسية عاطفة الأمومة فتضم اليها ابنها ، وتحاول أن تخلق منـــه فارســا يحقق حلمها فى النموذج الأعلى للفرسان ، وفى سبيل هذا تلقى من العنت ما تلقى ؛ فأبوه الحاقد لا يتورع عن اتهامها فى عرضها ، وفى انكار صحة نسب الولد اليه ويصل به الأمر الى أن يتهمها علنا حتى ليحتكم الجميع الى الخليفة مرة والى حكيم العرب فى مكة المكرمة مرة أخرى ، ويصل به

الحقد والدناءة الى الاصرار على ألا يقبل حكم الخليفة ولا حكم حكيم العرب فى مكة المكرمة لأنهما يقضيان ببراءتها ويؤكدان أن عفتها وصحة انتساب الولد اليه ، ومع كل هذا التشهير الذى تتعرض له ذات الهمة ، وقد وصلت من المكانة الى حد جعلها تقود الفرسان وتتصدر أكابر الرجال ويصبح لها اسم مخيف يرهبه شجعان الروم والعرب على السواء ، فهى تزداد التصاقا بولدها واهتماما بأمره وتكريسا لحياتها من أجله . وكأنما تجمعت كل فضائلها المتعددة لتتركز فى هذه الفضيلة الكبرى فضيلة الأمومة ، وحين يشتد ساعد الأمير عبد الوهاب تقدمه على نفسها ، وتضع له هو مركز الصدارة فى القبيلة وفى الجيش الذى تقوده ، ومركز القيادة فى كل المعارك التى يخوضانها جنبا الى جنب . وتظل بعد هذا من أواخر الجزء السابع من السيرة وحتى الجزء السبعين الملاك الحارس لابنها تفديه ان تعرض للهلاك بنفسها ، وتخلصه من الأسر ان تكاثر عليه الأعداء ، وتخوض أمامه المعارك ، تستمد من وجوده الى جانبها قوة واستبسالا ، ودافعا شخصيا هو حماية ابنها ، يجعلها لا تبالى بكثرة العدد

ولا قوة من تواجه من فرسان — صورة ذات الهمة الأم هنا لا تطغى عليها صورة ذات الهمة الفارسة أبدا ، اذ أن المعالم الرئيسية فى الأمومة من ايثار وحنان وبذل تتجمع كلها فى تحديد علاقتها بابنها عبد الوهاب . فهى وقد سادت الفرسان جميعا وأصبحت الملكة على فرسان ملطية على الحدود بين العرب والروم ، لا ترضى أن يتقدم عليها أحد سوى ابنها عبد الوهاب ، وهى من أجله تعادى الخليفة نفسه رغم اغراقها فى التدين والتصوف وطاعة ابن عم رسول الله ، بل هى تخوض بلاد الروم متنكرة أو سافرة أكثر من مرة حتى لتدخل القسطنطينية نفسها وراء خلاص ابنها دون تفكير فى العواقب ، أو خوف من الموت أو الأسر . ومن خلال هذه العاطفة يرسم المؤلف حقيقة علاقتها بجنودها وفرسانها الآخرين ، فاذ هى نوع من الأمومة الفائضة تظل بها كل من فى جيشها من فرسان سواء من العرب أم من السود أم من الروم المسلمين ، وهم يحسون بهذه العاطفة ويقابلونها بمثلها ؛ فهم لها جميعا أبناء ينزلون ابنها الحقيقى

عبد الوهاب من أنفسهم منزلة الأخ الأكبر ، وينزلونها هى منزلة الأم بما لها من حقوق أولها الحب وآخرها الطاعة .

الفضائل الأنثوية التى هى الأساس الأول عند السيرة فى تثبيت معالم صورة المرأة العربية والدفاع عن مكانتها من المجتمع العربى هى كما رأينا العفة والوفاء والأمومة ، وقد نجح المؤلف من خلال عرضه الروائى وأحداثه القصصية أن يؤكد هذه الصفات ، وأن يرسمها بصورة ناجحة تخدم غرضه وتحقق الهدف الذى يرمى اليه ، وتعطى المرأة العربية مكانتها الحقيقية كزوجة وحبيبة وأم حقها الكامل فى الأهمية والمكانة .

أما الأساس الثانى الذى أقام عليه المؤلف دفاعه عن المرأة هو قدرتها على المشاركة فى الحياة العربية مشاركة فعالة لا تقل عن قدرة الرجل ، وبحيث تصبح المرأة نصف المجتمع العامل ، لها ما للنصف الآخر من حقوق وعليها ما عليه من واجبات ؛ فيحظى بالجانب الأكبر من اهتمام مؤلف هذه السيرة اذ يمكننا أن نسمى

هذه السيرة بحق سيرة المرأة الفارسية ، والمرأة الزاهدة[1]، وهما الصفتان اللتان تجتمعان لذات الهمة ، بطلة السيرة ، تضعانها فى المكان الأول بين فرسان العرب ، بل وبين فرسان الروم أنفسهم الذين تقع مهابتها فى قلوبهم لشدة بطشها ، والذين يقع احترامها فى نفوسهم لشدة ورعها ، وبدأ ظهور ذات الهمة فى هذه السيرة يرجع الى أول الجزء السادس حين يمـوت الملك الصحصاح تاركا وراءه ولدين : ظالما من ابنـة عمه ليلى ومظلوما من زوجته الوحيدية أمامة ويستولى ظالم على كل مال أبيه ومكانته فى القبيلة ، ويرفض الاعتراف بحق أخيه مظلوم ، وبعد أحداث كثيرة يضطر ظالم الى افساح المكان لأخيه ، ليكون الاثنان على رأس القبيلة سواسية ، ويتفق الاثنان أن من أنجب منهما ولدا ذكرا انفرد ابنه بالحكم ، فان كانا ذكرين فالأمر قسمة بينهما . وبهذا يكون المؤلف قد وضع يده على بداية المشكلة التى يحاول أن يعالجها ، فالمجتمع العربى لا يعترف للمرأة بحقها فى مساواة الرجل ويعتبرها

(١) راجع الفصل الثامن من الكتاب الثالث من (ألف ليلة وليلة) للدكتورة سهير القلماوى .

عنصرا أقل درجة فى الأهمية والامكانيات من الرجل ، وتأتى أحداث السيرة بعد هذا لتشجب هذا الرأى وتثبت خطاه ، وتفاهته . فظالم ينجب ولدا اسمه الحارث ، أما مظلوم فيأتى بفتاة اسمها فاطمة ، ولا يجد الأب أمامه الا أن يدعى أنه جاء بولد ذكر ثم مات ويسلم ابنته الى أمة تركية اسمها سعدة ، كانت قد وضعت حديثا ابنها مرزوق ، ويوصيها بكتمان أمرها . ويقول الراوى فى — ص ١٤ — من الجزء الثالث : « هذا وقد واظبت أم مرزوق فى رضاعة الجارية وسرها مكتوم ، وكانت سعدة تأتى بها الى أمها سرا بالليل وترضعها وتحن اليها وقد سمتها فاطمة ، هذا أبوها مظلوم لا يقر بها ولا يشتهى أن يراها لأن البنت مكروهة بين الرجال ، ولا سيما بازالة نعمة » . وتكمل جوانب القضية حين يغير بنوطى على ديارهم فيأسرون النساء ومن بينهم سعدة وربيبتها فاطمة ، وهكذا تمثل فاطمة قمة ما تصل اليه الفتاة العربية من اذلال فى مثل هذا المجتمع المتأخر ، اذ تصبح أمة تخدم فى أموال أحد أبناء طى ، الذى وقعت فى قسمته هى ومربيتها واسمه الحارث حتى لقد غير

اسمها الى شريحة بدلا من فاطمة . وتظل ترعى الابل والأغنام وتقوم بأعمال العبيد ، الا أنها تجد متنفسا مما هى فيه فى أمرين تزاولهما باصرار وانتظام هما العبادة والتبتل ، وقد كرهت العالم بشروره ونفرت منه لما حل بها من مصائب فقررت الزهد والبعد عن مباهج الحياة . والأمر الثانى الذى تزاوله هو الرياضة البدنية التى تتيحها لها اقامتها الدائمة بين الخيل والابل ، الا أنها تتعرض لما يتعرض له الاماء من مهانة ، اذ يتعرض لهـا فارس اسمه قريح فتشكوه لسيدها الذى يواجهه ويطلب منـه اما أن يتزوجها واما أن يبتعد عنها ، ويستنكر قريح أن يتزوج من أمة ، ويعد أن لا يضايقها بعد ذلك ، الا أنه يخلف وعده ، ويعود الى مطاردتها ، وقد استخفت نفسه بمكانتها فى القبيلة وأحسها لقمة سائغة تطمع فى مصانعة أمثاله من الفرسان ، ولا تجد فاطمة أمامها الا أن تطمعه حتى يبتعد معها عن القبيلة ومضاربها ، ثم تشده من على فرسه ، فاذ هو طريح على الأرض وتستل سيفه لتجز به رأسـه وقد اشتدت بها الحمية ، وثارت فيها النخـوة العربية ، ويطلب اخوة القتيل دمهم المهدور من سـيدها

الحارث فيدفع ديته من أمواله حتى ليعود فقيرا لا يملك شيئا ، وحين يرجع الى مضاربه ثائرا عليها منتويا قتلها ، تعده أن تعيد اليه أكثر مما دفع دية لقريح على أن يعطيها جوادا وعدة جلاد ، ويتركها تخرج غازية فى مضارب القبائل الأخرى . فيعطيها ما تطلب ، وتخرج فاطمة لتلتقى بفارس من شجعان العرب له مال عظيم ، وبعد صدام عنيف تقتله ، وتستولى على أمواله ، وتعود بها الى سيدها الحارث وأخوها فى الرضاع مرزوق يجرى أمام فرسها ويطمئن الحارث اليها ، ويفرد لها مكانا الى جوار خيمته تقيم به خيمة لها . وتتكرر غزوات فاطمة التى أصبح بنو طى يسمونها بذات الهمة ، وتكثر الأموال التى تأتى بها بعد كل غزوة . وبعد أن يؤكد المؤلف بما يسرد من أحداث تفوق بطلته كفارسة من فرسان العرب الأشداء بحيث أصبحت حامية قبيلة بنى طى لا مجرد واحدة من اماء القبيلة ، يتقدم خطوة أخرى نجو تعقيد الموقف ، اذ يطلع شيوخ بنى طى ذات الهمة على العداوة المستحكمة بينهم وبين بنى كلاب ، فتقدم على غزو بنى كلاب أكثر من مرة تسوق أمامها خيولهم

وأموالهم ونياقهم غنيمة لها ، وهى لا تدرى أنها تغزو قبيلة أبيها وعمها ، الى أن يتعرض لها أبوها مظلوم ليمنع شرها عن القبيلة ويلتقى بها فى مجال النزال . ويقف المؤلف وقفة طويلة يصف فيها هذه المعركة الطريفة بين الابنة والأب الذى تخلص منها يوم ولادتها لأنها عار عليه ومسبة فى جبينه ، ولا قيمة لها فى حفظ القبيلة والدفاع عن المال ، وتأسره ذات الهمة وتستولى على أمواله وتقتل عبيده وتعود به الى بنى طى الذين يفرحون لأسر المظلوم ابن الصحصاح بن جندبة ، ويقررون أن يحتفلوا بقتله فى يوم مشهود يحضره كل بنى طى . وفى الليل تتدخل سعدة لتعرف الابنة بأبيها والأب بابنته ، وتعلم ذات الهمة أنها فاطمة بنت مظلوم بن الصحصاح بن جندبة بن الحارث الكلابى ملك ملوك بنى كلاب ، تعود بأبيها وأموالها متجهة الى قبيلتها فيتعقبها بنــو طى يتقدمهم الحارث سيدها ، ولكنها توقفهم وتحكى لهم الأمر فيؤثر الحارث أن يرد لها حريتها وأن يعترف بالأمر الواقع ، بينما يتعرض لها بعض الفرسان من بنى طى فتهزمهم وتعود ســالمة الى ديارها الأصلية ، وتنضم بأموالها الى أموال أبيها .

وهكذا تستطيع هذه الفتاة التى أبعـــدتها القبيــــلة — لانتسابها الى النساء — عن حقها فى مكان الصدارة بها ، الى نفس هـــذه القبيــلة بعد أن أذلتها بسيفها وسطوتها ، تعود مدلة مفاخرة الى مكانها فى بيتها حيث يعترف أبوها بها والى مكانها فى مجتمعها حيث يعترف الحارث بحريتها ، ثم الى مكانتها فى صدر القبيلة التى ينازعها عليها الحارث بن ظالم ابن عمها . والحارث قد أحبها ونفس عليها مكانها . وذات الهمة ترفض غــرامه ولا تجد فى نفسها الا بغضه وكراهيته ، وحين يزداد الحاحه تحكم عليه بأن يكون السيف هو الحكم بينهما ، ويقبل مغترا بقوته ، وتهزمه أمام القبيلة وفرسانها جميعا . ثم تقوم الحرب بين العرب والروم ويستدعى المنصور أعوانه من كل البلاد ولا يجد للحدود الا بنى كلاب أبناء الصحصاح الذى كان يحرس الحدود فى عهــد بنى أمية فيستدعيهم اليــه ، ويقبل ظالم ومظلوم وذات الهمــة لينضموا الى الجيش المسافر الى الحدود ، وتصمد ذات الهمة فى البلاء فى هذه المعارك ، حتى لتصبح على مكان الصدارة من فرسان المسلمين الذين كانت تقودهم ضــد

بنت ملك الروم واسمها ملطية ، وكانت قد بنت مدينة رومية على الحدود تغزو منها بلاد المسلمين ، وتستطيع ذات الهمة بأصالة رأيها وشجاعتها أن تهزم ملطية وأن تحرقها فى المدينة ثم تستولى على كل مناطق الحدود ، وتجعل من ملطية مركز غزواتها وغزوات المسلمين على بلاد الروم .

هذه هى الخطوات الأولى التى يتم فيها تكون أكبر شخصية اسلامية نسائية روائية فى تاريخنا الأدبى ، وقد جمعت بعد تحررها من الأسر واعتراف أبيها بها خضوع بنى كلاب جميعا واقرارهم لفضلها ، ثم قيادة جيش المسلمين على الحدود ، وتكريم خليفة المسلمين لشجاعتها وقدرتها ، فنالت ما يطمع الى نيله أشد الرجال شجاعة وأكثرهم رجولة بقوة سيفها وبأصالة فى خلقها ، وبهمة حقيقية تحدو ركبها ، حتى ليصبح اسم ذات الهمة مرتهنا بكل أحداث الحروب بين العرب والروم [١] ، تلك الأحداث التى يتفنن صاحب السيرة فى قصها قصا

---

(١) راجع (الامويون والبيزنطيون) للدكتور ابراهيم أحمد العدوى ، وراجع (العرب والروم) لفازيليف .

روائيا وعرضها عرضا جذابا منذ عهد المنصور حتى عهد الواثق ، وما أحداث الرواية كلها بعد هذا الا أدلة متوالية على فضل المرأة العربية وقدرتها على المشاركة الحقيقية فى الحياة وجدارتها بنفس المكانة التى يتمتع بها الرجل .

والواقع أن المؤلف لم يكتف بشخصية ذات الهمة ليثبت بها هذه القضية ، وانما أضاف شخصيات نسائية جانبية كثيرة تؤكد المعنى الذى يرمى اليه ، وتثبت القضية التى يحاول اثباتها . من هذه الشخصيات ، شخصية الملكة (ألوف) التى تهزم [1] الملك الصحصاح فى مجال الصراع ثم تسلم هى ورجالها لتصبح فى خدمة الاسلام وقضيته ، ويفرد المؤلف لها أكثر من جزء ليبين شجاعتها وقدرتها على الحرب حتى لتتزوج آخر الأمر بمسلمة ابن الخليفة عبد الملك بن مروان تتويجا لجهودها وتثبيتا لمكانتها فى المجتمع الاسلامى ، ويرسم لنا صورة

---

(١) هناك شبه خطير بين قصة (ألوف والصحصاح) فى ذات الهمة وبين أهم قصص ألف ليلة وهى (قصة عمر النعمان) ، وهذا التشابه لم يلتفت اليه أحد من دارسى ألف ليلة .

أخرى هى صورة (ميرونة) بنت البطرك وهى أيضا فارسة شديدة لها دور لا يقل خطرا عن دور أى فارس من فرسان الروم ، ثم (زنانير) بنت الملك بولص ، ثم (الغيداء) زوجة هياج الكردى وبناته و (القناصة) ابنة مزاحم ، والملكة (نورا) ، والملكة (كرنة) والملكة (ميمونة) و (السعيدة) بنت جحاف ..

وغيرهن مما امتلأت بهن أحداث السيرة يرمزن الى قدرة المرأة على أن تدخل ميدان الشجاعة وأن تفوز فيه بقصب السبق وأن تحرز به أعلى مكانة يطمح اليها الرجل الفارس العربى . وكذلك جعل المؤلف من بطلته ذات الهمة نموذجا للمرأة العابدة الزاهدة التى تصل فى مضمار العبادة ، والاخلاص لهذه العبادة حدا يفوق الصور الخيالية التى ترسم للزهاد والعابدين ، ويؤكد هذه الصورة بتفصيله لقصة السيدة بنت جحاف الزاهدة المتعبدة التى يتآمر الروم على خطفها لما اشتهر عنها من أمر العبادة والتبتل ، وتخوض ذات الهمة وابنها الأمير عبد الوهاب وكذلك أبو محمد البطال والفارس جحاف أبوها مغامرات مثيرة لفك أسر هذه العابدة المتبتلة التى

أخلصت لدينها رغم كل ما تلقى من صنوف العذاب . وهكذا تكتمل صورة المرأة الفارسة الشجاعة وصورة المرأة الزاهدة المتبتلة مع صورة أخرى يلقى عليها المؤلف الأضواء الكثيرة وهى صورة ذات الهمة القائدة العظيمة التى تقود الجيوش بحكمة وبراعة وذكاء وخبرة وتتغلب بالحيلة على ما لا تستطيع أن تتغلب عليه بالشجاعة ، ويضع المؤلف اثباتا لهذه الصورة فى رسم شخصية الكاهنة (دهرشوما)[١] زوجة الكاهن (شو مدرس) وهما اللذان يلعبان مع القاضى عقبة دور الجواسيس الروم فى صفوف المسلمين ، وتقف أمامهم ذات الهمة برجاحة عقلها والى جوارها أبو محمد البطال بحيله ومهارته يسنده تلاميذه وأولاده ليبطلوا حيلهم ويكشفوا خدعهم وأحابيلهم .

ذات الهمة اذن سيرة تعتمد على مهاد من المعارك بين العرب والروم لاثبات قضية انسانية ضخمة ، هى

---

(١) ترسم (دهرشوما) فى سيرة ذات الهمة و (شواهى) فى ألف ليلة صورة (لتذدرة) التى روى عنها الطبرى فى حوادث سنة ٢٤١ أنها قتلت ١٢ ألفا من أسرى المسلمين .

قضية المرأة وحقوق المرأة التى تنبع من قدرتها على القيام بواجباتها المطلوبة منها فى المجتمع الاسلامى ، والتى هى مزيج من واجباتها الأنثوية الهامة التى تؤهلها لها طبيعتها والتى ترتكز كما قدمنا على العفة والوفاء والأمومة ، وواجباتها كجزء من المجتمع الانسانى لا يقل فى قدرته عن الجزء الآخر وهو الرجال ، فتجمع بين الشجاعة والدين والعقل لتكتمل لها الصفات التى تمنحها الحق فى أن تقف فى المجتمع على قدم المساواة مع الرجل فى كل مسئولياته وحقوقه .

وهكذا تكون ذات الهمة من أولى الوثائق الأدبية العالمية التى اتجهت الى الكلام عن هذه القضية الهامة من مكان الانسان .. أعنى مكان المرأة ..

حاشية : ١ – يقول الأستاذ أحمد رشدى صالح فى كتاب (الفنون الشعبية) « ان الراوية التقليدى » الذى كان يحفظ سيرة الجندبة وقتالة الشجعان أو سيرة الظاهر أو عنترة ، قد أنتهى كأنموذج فنى فى حياتنا الشعبية » .

وعلى هذا يكون حفظة سيرة ذات الهمة قد عرفوها باسم (الجندبة وقتاله الشجعان) ، وجندبة هو الجد الأكبر=

=لذات الهمة ، فالسيرة تبدأ بجندبة الكلابى فالصحصاح ابن جندبة ، فظالم ومظلوم ، ففاطمة بنت مظلوم ابن الصحصاح بن جندبة الكلابى • أما (قتالة الشجعان) فهى زوجة جندبة التى تستشهد دفاعا عن عرضها •

٢ ــ الدراسة الوحيدة عن ذات الهمة حتى الآن قدمت الى جامعة (توبنجن) بألمانيا الغربية ، ونالت عليها الدكتورة نبيلة ابراهيم درجة الدكتوراه ، والرسالة مازالت بالألمانية لم تترجم الى العربية بعد ، وتتتبع فيها الدكتورة نبيلة ابراهيم آثار سيرة ذات الهمة فى الأعمال التى تلتها كسيرة الظاهر وقصة النعمان فى ألف ليلة ، كما تقدم الرسالة دراسة مقارنة بين هذه السيرة والأعمال الشعبية التى خلفتها معارك العرب والروم فى الأدب البيزنطى كملحمة (ديجينس) وبعض الأغانى والأشعار الشعبية التى يقوم ببطولتها أبطال يحملون نفس أسماء أبطال سيرة ذات الهمة •

٣ ــ قدمت دار المعارف محاولة لتقريب هذه السيرة الى مستوى الأطفال •

سيرة الظاهر بيبرس

تكاد سيرة الظاهر بيبرس أن تكون امتدادا لسيرة ذات الهمة من ناحية الفترة الزمنيـــة التى تعالجها ، فحين تنتهى أحداث سيرة ذات الهمة بالخليفة الواثق ذاكرة الأحداث التى تلت وفاته فى عصر المتوكل وظهور الترك كعامل مؤثر فى أحداث الدولة العباسية وفى مقدرات المسلمين ، نرى سيرة الظاهر بيبرس تبدأ بذكر المعتصم والواثق والمقتدر ، ثم تقفز قفزا على كل أحداث العصر العباسى الثانى لتصل بنا الى بداية حكم الأيوبيين لمصر وهى تقدم على هذا القفز دون احساس بالفرق الزمنى الكبير بين نهاية حكم المتوكل وبين بدء الدولة الأيوبية ، بل تورد حديثها وكأن هذه الدولة نشأت فى ارتباط تاريخى تام بحكم المقتدر بالله .

هذه السيرة اذن تغطى مرحلة زمنية تعتبر امتدادا الى حد ما للمرحلة التى وقف عندها كاتب سيرة ذات الهمة

من تأريخ لحياة الدولة الاسلامية فيظل بهذا كتاب السير يربطون مراحل التاريخ العربى مرحلة اثر مرحلة ، منذ عنترة فى الجاهلية ، فذات الهمـة فى الدولتين الأموية والعباسية حتى تدخل فى العصر العباسى الثانى ، فالظاهر بيبرس التى تبدأ من نقطة فى العصر العباسى الثانى لتصل بعد فصول قليلة للوقوف عند الحروب الصليبية فى نهاية أيامها فى العصر المملوكى وخاصة فى عهد الملك الصالح أيوب ، ثم فى عهد الظاهر بيبرس ، وليس الأمر فى الصلة بين السيرتين هو هذا فحسب وانما الصلة بين السيرتين تدخل فى العلاقات التى تربط ملامح الأبطال فى سيرة الظاهر بملامح الأبطال فى سيرة ذات الهمة لولا أن جرعة البطولة فى ذات الهمة ترجح فيها كفة الشجاعة الحربية والقوة العسكرية على كفة المهارة الذهنية وسعة الحيلة . أما فى الظاهر بيبرس فيتغير وضع الميزان قليلا فعلى الرغم من احتفاظ السيرة بما للشجاعة الحربية من أهمية ، الا أننا نحس أن كفة البطولة العقلية والقوة على رسم الخطط واصطناع الحيلة ترجح ويزيد الاهتمام بها ، ولعل هذا يسير طبيعيا مع تطور الشعب

العربى نفسه وتطور مفهوم البطولة بتطور حياته الاجتماعية وتشابكها وبدء الاستقرار فى المدن الكبرى وكثرة الجند المرتزقة الذين يقومون عنه بالقتال ويستأثرون دونه بمجالات البطولة الحربية وأمجادها ، فبينما نجد فى ذات الهمة أبا محمد البطال وأبناءه يمثلون البطولة التى تعتمد على سعة الحيلة ورجاحة العقل ، نجد فى الظاهر بيبرس عثمان بن الحبلى وجمال الدين شيحة ثم نجد الصراع الدائم الذى يدخل فيه جمال الدين شيحة ليحتفظ لنفسه بحق الصدارة فى هذا الميدان وليظل رئيسا للفداوية الذين يمثلون كلهم مزيجا من البطولة الحربية والقدرة العقلية المتفوقة مما يشبه لنا ذلك الصراع الذى يدخل فيه على الزئبق فى السيرة المعروفة باسمه للاحتفاظ بمنصب مقدم درك بغداد من الطامعين فى مثل هذا المنصب الذى هو حق لأوسع الناس حيلة وأكثرهم شجاعة وأجرأهم قلبا ..

وتغيير ميزان القوى فى البطولة هكذا أمر طبيعى طالما وضعنا نصب أعيننا أن هذه السير تعكس طبيعة

الشعب العربى فى مراحل حياته المختلفة [1] ، وتعكس أيضا مفاهيمه وقيمه ، وتصور لنا البطولة عنده فى كل مرحلة من المراحل .. وليس الأمر فى الصلة بين هذه السيرة وسيرة ذات الهمة أنها متابعة لما انتهت عنده أحداث سيرة ذات الهمة ولا أن هناك تشابها فى رسم شخصيات بعض الأبطال وفى تحديد معالم البطولة مع الاحتفاظ بعنصر التطور الطبيعى الذى يفرضه الزمن فحسب ، وانما الأمر أكثر وضوحا وأشد ابانة فى رسم مؤلف الظاهر بيبرس لشخصية البطل الشرير فى سيرته وهو جوان أو القاضى صلاح الدين الذى يقوم بدور الجاسوس للصليبيين فى بلاط خليفة المسلمين فهو فى سيرة الظاهر قاضى الخليفة المسلم المتمكن من أحكام الشرع والسنة ، وهو فى الحقيقة عميل لأعداء الخليفة من الملوك الصليبيين ، معين لهم على هزيمة جيوش المسلمين ، هو فى باطنه مسيحى متعمق فى دينه ومتعصب له تعصبا أعمى ، لا يعرف مسامحة ولا هوادة . وهذه

---

(١) راجع (البطل فى الأدب والأساطير) للدكتور شكرى عياد .

الشخصية تشابه مشابهة كاملة شخصية القاضى عقبة فى سيرة ذات الهمة ، اذ هو فى ظاهره قاضى الخليفة ، المشير عليه ، المتقرب بنسكه وزهده اليه ، حتى ليحميه الخلفاء المتتابعون فى هذه السيرة منذ هارون الرشيد وحتى المعتصم حماية المؤمن به الواثق من دينه ، وحتى لتعينه السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد ضد كل محاولة لكشف سره والكف عن شره ، وهو فى باطنه يكره الاسلام والمسلمين ويتدين بالمسيحية ويعمل جاسوسا لملوك الروم ومشيرا على قادتهم ، وهدفه هزيمة جيوش المسلمين والقضاء على الدولة الاسلامية .

والمشابهة تصل الى أكثر من هذا حين يصل الأمر بعقبة فى ذات الهمة وجوان فى الظاهر بيبرس الى حد كراهية الجنس البشرى كله ، والرغبة فى احداث المذابح الجماعية بأى شكل ، تلك المذابح التى يروح ضحيتها المسلمون والمسيحيون على السواء ، واللذة الكبرى عندهما هى فى اثارة الفتن ، واسالة الدماء ، واشعال نار الحرب بكل الوسائل ، وبمختلف الطرق .

والمشابهة بين هاتين الشخصيتين ليست مجرد

مصادفة ، وانما هى عندنا محاولة لتجسيد قوة الشر ، أو لرسم صورة ابليس على هيئة آدمية من لحم ودم ، ويكون الصراع فى السيرتين هو صراع الخير ممثلا فى أبطالهما ضد ابليس والشر مجسدا تارة فى عقبة وأخرى فى جـوان ، وطبقا للمفهوم الاسلامى تنتهى السيرتان بهزيمة الشر والقضاء على رمزه قضاء رهيبا بعد انتصاره انتصارات متعددة تكاد تزرع اليأس فى نفوس مصارعيه ، وتكاد تجعل من هزيمته أمرا مستحيلا لا قدرة لأحـد عليه .

وجوان فى الظاهر بيبرس هو امتداد لعقبة فى ذات الهمة ، لا بناء على فرض من التتابع الزمنى وحسب وانما بناء على اشارة صريحة فى صلب السيرة اذ يقول المؤلف فى صفحة (٥١) فى المجلد الأول فى سيرة الظاهر فى منشأ الشيخ صلاح الدين الذى هو جوان : « كان فى قديم الزمان وسابق العصر والأوان فرقة من العرب يقال لهم طائفة بنى سليم وكلهم كانوا مسلمين فتخلف منهم رجل يقال له عقبة اللعين ابن مصعب ، وكان داخله الغرور ، يوقع الفتن ويخبر كل الأمور ، حتى أشرك بالله تعالى

ومحمد رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد تقدمت قصته فى غير هذه السيرة » . والاشارة هنا واضحة الدلالة الى سيرة ذات الهمة التى يمثل دور الشرّ فيها أفراد قبيلة بنى سليم وعلى قمتهم عقبة بن مصعب ، ثم يقول كاتب سيرة الظاهر : « ثم تولد من نسله غلام ألعن وأضـل سبيلا يقال له معقب الوبيل ، فلما نشأ خلّف غلاما يقال له الحصين ، خلف معقب ومعقب خلف سمعان ، وسمعان خلف نشرات ، ونشرات خلف أصفهان ، وأصفهان خلف ولدين ذكرين ، الأول يقال له كرصمويل والآخر يقال له أصفوط » . وهذه السلسلة محاولة من المؤلف لمتابعة نسبة جوان على الطريقة العربية التى عرفوها فى الأنساب ويقف المؤلف عند كرصمويل وأصفوط ليرسـم لنـا كرصمويل بطريكا متدينا عفّا ، أما أصفوط فهو شرير من قطاع الطرق ، واثر مغامرة مثيرة يعتدى أصفوط على ابنة الملك عبد الصليب ملك البرتغال التى كانت تعيش فى دير العامود عنـد البطرك كرصمويل ، ولا يتكفى باعتدائه وحـده عليها ولكنه يسمح لرجاله الأربعين بالاعتداء عليها معه ، ويضطر كرصمويل الى ابلاغ الملك

الذى يستطيع القضاء على أصفوط ورجاله الأربعين ، بينما تعود اليه ابنته وقد حملت من أصفوط ليلة اعتدى عليها هو وأتباعه . ويقول الكاتب : « وظهر حملها حتى وفت أيامها ، فوضعت غلاما ذكرا عبرة لكل البشر أبطش المنخر ، وليلة وضعه انخسف القمر ، وأظلمت الدنيا ، ولمع البرق ، ونزل المطر ، وزادت الرعود ، واشتدت الظلمة ، وكانت ليلة عتمة أربع وعشرين آخر شهر صفر ، فهى نحس النحوس ، كما قال البونى وذكر ، وقد خرج رفيع العنق كبير الرأس شنيع المنظر ومن جملة قباحته أن أمه بعد أن وضعته انقلبت فماتت » .

جوان اذن هو أحد حفدة عقبة بن مصعب السليمى ، ولو راجعت صورة مولد عقبة فى ذات الهمة لوجدت مشابهة غريبة بين الأوصاف التى ذكرها المؤلف فى الأولى والتى يوردها مؤلف الظاهر بيبرس ، فان لم تكن هناك أدلة سوى هذا الدليل فهو وحده كاف للاقناع بأن سيرة الظاهر تأتى تالية لسيرة ذات الهمة ، لا من حيث الفترة الزمنيـة التى تعالجها وحسب ، ولكن من حيث زمن التأليف كذلك ، ونحن يهمنا هذا التحديد الزمنى للسير

حتى يمكن أن نحدد بالتالى أهمية القضايا التى تعالجها كل سيرة وموافقتها لمقتضيات العصر الذى تعالجه وما طرأ على مفاهيم المجتمع الجديد من تطور يشير الى ما سبقه ويمهد لما يليه . والظاهر بيبرس (١) انما هى عرض روائى للفترة التى عاشتها الأمة العربية مع الحروب الصليبية الأخيرة التى تمت فى نهاية عهد الأيوبيين واتتهت فى مطلع حكم المماليك ، وكما كانت سيرة ذات الهمة معرضا لأحداث الحروب بين العرب والروم فى حكم الأمويين والعباسيين فكذلك كانت سيرة الظاهر بيبرس معرضا للحروب الصليبية فى حكم الأيوبيين والمماليك . والحدث التاريخى فى سيرة الظاهر بيبرس ليس له من أهمية الا فى اتاحة الفرصة أمام كاتب السيرة لينسج أحداثا روائية تبرز ألوان البطولة النفسية والجسدية للشعب العربى ، والواقع أن تعبير الشعب العربى هنا ، ليتحدد بطريقة حاسمة ليشمل أبناء المنطقة العربية التى نعرفها اليوم جميعا ، وكأنما يحاول كاتب السيرة أن يجعل من بطله

(١) راجع (الظاهر بيبرس فى الأدب الشعبى) للدكتور عبد الحميد يونس .

الظاهر بيبرس رمزا يتجمع حوله أبناء الأمة العربية تجمعا فعليا لمواجهة الغزو الصليبى القادم عبر البحار ، ولتحرير بعض البقاع من العالم العربى التى استطاعت الحروب الصليبية السابقة أن تجعل منها رأس جسر فى صميم جسد الأمة العربية ونقطةوثوبلحملاتها القادمة ، والواقع أننا نستطيع أن نحس احساسا واضحا بأن هدف المؤلف فى رسم المعارك واجراء الأحداث يرتكز على هذه النقطة بالذات ومن هنا كان الحدث التاريخى فى ذاته لا يعنى شيئا بالنسبة له ، وانما هو استغل هذه الفترة المضطربة فى تاريخ الأمة العربية لينتقل بأبطاله وأحداثه من مكان الى مكان داخل حدود الوطن العربى وخارجه ليؤكد وحدة الأرض ، كما يؤكد بطريقته فى اختيار أبطاله وحدة الشعب العربى ، وقد تظن أننا نقف هنا وقفة طويلة بلا مبرر ولكن الواقع أن هذه الوقفة ضرورية ، لأنه لابد من ايضاح مفهوم الشعب العربى عند المؤلف . فاذا كانت المسألة سهلة عند مؤلف سيرة عنترة اذ تجرى أحداث سيرته داخل الجزيرة العربية ذاتها ، فالشعب العربى عنده هم سكان هذه الجزيرة ، كما أن القضية سهلة الى

حد ما بالنسبة لكاتب ذات الهمة اذ أن أحداث سيرته تدور كلها بين الجزيرة العربية والعراق والشام ، ولا يكاد يتسع مدلول كلمة عربية عنده الا ليشمل العناصر الجديدة التى تم تبلورها فعلا داخل جسم الأمة العربية من سكان العراق وسكان الشام وسكان مصر ، وكلهم يرتبطون ارتباط دم بالجنس العربى الأم .

أما بالنسبة لكاتب سيرة الظاهر بيبرس فمدلول كلمة عربى عنده يتسع اتساعا ضخما لتشمل التركيب الاجتماعى السائد فى المنطقة كلها التى تجمعه مصالح مشتركة ويهددها خطر واحد وتدين كلها بنوع من التعاطف ، عناصره الدين واللغة والامتزاج الذى استمر فترات طويلة من الزمن تم فيها نوع من البلورة تخلق حضارة موحدة تربط المفاهيم بعضها ببعض ، تخلق نوعا من الاحساس بالتوحد البديهى الذى لا يحتاج الى مناقشة ولا الى دليل . ونلمح أبطال السيرة يرتفعون فى نسبهم من أصول تكاد تكون أجنبية تماما عن مدلول كلمة عربى ، ولكنها لا تستطيع أن تؤثر فى واقع ارتباط هؤلاء بعضهم ببعض ولا فى أهمية هذا الارتباط ، فبعض

الأبطال أكراد واضحى النسبة وهم الأيوبيون مثلا ومنهم سلطان مصر عند بدء السيرة : الصالح أيوب ، وبعضهم عجم لا شك فى انتسابهم الى بلاد الفرس ونسبتهم تعود الى أرض ايران وبعضهم ترك كالظاهر بيبرس [١] بطل السيرة نفسه ، وبعضهم بدو من أبناء سيناء كشيحة الذى يعود نسبه الى غزة مباشرة ، وبعضهم ينبع من حوارى القاهـرة كعتمان بن الحبلى الذى يخـرج من حى الحسينية . ومن الشام يخرج ابراهيم الحورانى وحسن الحورانى ، ومن المغرب يأتى قائد الأسطول العربى فى الحروب الصليبية فى السيرة محمد فارس البطريق الذى يعود نسبه الى مدينة طنجة بمراكش ويقود سفينة حربية رهيبة اسمها الغراب ، بينما يأتى نسب آخرين بطريقة أكثر غرابة اذ ينحدر عرنوس الذى يلعب دورا خطيرا فى الأجزاء الأخيرة من السيرة من أصل ايطالى ، وكذلك ابنه الملك يتمورج . ولا يستطيع كاتب السيرة أن يهمل أصول المماليك الذين يلعبون دورا هاما فى أحـداث

---

(١) راجع (الظاهر بيبرس) للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور .

سيرته ، فبعضهم من منطقة جورجيا وبعضهم من الشركس . ومع هذا فكل هؤلاء يمثلون المكونات التى يقوم عليها الكيان الواقع للشعب العربى فى ظل امتداده على ساحل البحر الأبيض المتوسط فى مواجهة الغزو الصليبى . وقد ارتكز المؤلف فى تقديمه للمنطقة كلها فى اتحاد حى متحرك على التسليم بالأمر الواقع والفرض الذى لا يقبل مناقشة أول الأمر ، ثم على تثبيت هذا الفرض من خلال الأحداث الروائية التى تربط نماذج من هذا الخليط البشرى وتدخلهم بوتقة التجربة حيث تنصهر معادنهم فيظهر امتزاجهم الحقيقى أمام وحدة الهدف ووحدة المصير وبحكم وحدة الحضارة والتراث .

وأحداث السيرة حين تبدأ فى الخروج من مصر لتشمل العالم العربى كله ، اذ تبدأ المناوشات الأولى للحروب الصليبية ، تخرج خروجا موجها الى هذا المعنى بالذات فيقول المؤلف فى صفحة (٥٦٦) الجزء العاشر من السيرة حين ترسل حلب استغاثة الى القاهرة — لأنها قد تعرضت للغزو — على لسان الوزير شاهين الأفرم اجابة على سؤال للملك الصالح أيوب : « اذا أخذوها

— يعنى حلب — يأخذون الشام بعدها . قال الملك دعهم يأخذوها ، قال الوزير يأخذون ما وراءها من البلدان مثل تابوك وغزة وقطية . قال الملك دعهم يأخذوا ما يشاؤون ويملكوا ما يطلبون فى الأرض والأمر لله الواحد القيوم . قال له الوزير ان أخذوها يأخذون مصر » . وكأنما يرد المؤلف منذ البدء على كل الدعاوى التى يمكن أن تثار حول اشتراك مصر فى معركة تدور بحلب ، وكأنما يريد أيضا منذ البدء أن يؤكد ضرورة هذه المعارك المشتركة التى كان يقودها سلطان مصر ويخوضها الى جواره أبناء الأمة العربية فى كل مكان ، وتدور فى مختلف أرجاء العالم العربى أو الاسلامى المترابط المتحد .

حقيقة تلجىء المؤلف الى خلق قوى غيبية تتدخل فى كثير من المواقف تدخلا مباشرا لتؤكد لأبناء هذه الأمة حقيقة ارتباطهم وضرورة تكاتفهم وواقع أخوتهم ، وكأنما يرفع المؤلف بهذه القوى المشكاة من مجال المناقشة الى مجال المسلمات اذ تتمتع هذه القوى بنفوذ أكيد خطير يرتبط بالدين كما يرتبط بالمعجزة ، من هذه القوى

الشخصيات الأسطورية كالخضر عليه السلام وشخصيات أولياء الله الصالحين كسيدى المغاورى والسيد البدوى والسيدة نفيسة والسيدة زينب التى تبدو كالروح الخفية المسيطرة التى تحمى أبناءها وتؤكد لهم النصر وتخرجهم من المآزق وتؤاخى بينهم وتجمع صفوفهم . فالسيدة نفيسة هى التى تجمع بين عثمان بن الحبلى والظاهر بيبرس ، ويتم تآخيهما فى جامعها وتحت أسوار ضريحها ، والمغاورى هو الذى يجمع بين الظاهر بيبرس وجمال الدين شيحة ، وهو أيضا الذى يجمعهما بالقائد البحرى محمد فارس البطريق المغربى .

وهذا الدور الغيبى الذى تلعبه هذه القوى يرمز الى القوى العميقة التى تربط أبناء هـذا الشعب وتسير مصائرهم وتحدد اتجاههم نحو هدف مشترك واحد لابد من أجل تحقيقه أن تصفو نفوسهم بعضهم لبعض وأن يتآخوا أخوة الصداقة وأخوة السلاح ، تلك الأخوة التى تجمع بينهم فى كفاح مشترك يحقق لهم النصر بل يمكن أن نقول انهذه القوى الغيبية برموزها المتعددة وحركتها الخفية وراء الأحداث ثم أهميتها فى سير الأحداث يمكننا

آن نعتبرها رمزا للأساس النفسى الهام الذى تقوم عليه وحده بين شعوب المنطقة ، اذ تشعر بوحدتها وارتباطها بنوع من العلاقة الخفية القوية التى تعمل عملها دون أن تظهر ظهورا حقيقيا وانما تظهر آثارها دالة عليها .

وهذا العامل النفسى الذى يربط أبناء المنطقة يفوق فى أهميته كل العوامل الظاهرية الأخرى لأنه احساس ينبع من القلوب وتسلم به العقول تسليما ولا نجد حاجة الى مناقشته .

يمكننا اذن أن نقول ان حركة المجتمع العربى تجاه الغزو الصليبى [١] تمثل الهدف الاجتماعى لهذه السيرة ، وتعكس بهذا عناصر التوحد بين أبناء المنطقة العربية رغم اختلاف الأصول والأجناس ، وتجعل من هذه المنطقة مجالا واحدا حرا تتحرك فيه روح التجمع فى الانطلاق نحو الدفاع عن كيان المنطقة كلها حفاظا على تقاليدها ودينها وأرضها ، والانطلاق نحو التغيير الثورى فى نظم المجتمع المعاش لتحسينه واصلاح أجهزته ، وقد

---

(١) راجع (دولة الظاهر بيبرس فى مصر) للدكتور محمد جمال الدين سرور .

استغل المؤلف شخصية عتمان بن الحبلى ابن الحسينية القاهــرى ليرسم من خلاله ومن خلال علاقته بالظاهر بيبرس مظاهر الانحلال والفساد فى المجتمع المصرى وفى الادارة المصرية ونظام الحكم فيها .

ويسير عتمان بن الحبلى الذى أصبح سايسا للظاهر بيبرس ليكشف عن انعــزال الحــاكم بكل أجهزته عن مشاكل أهل البلد الأصليين حتى لتهدر كرامات الناس علنا وعلى قارعة الطريق ، ويستفز الظاهر بيبرس للتدخل فيقتل أغا الوشاقية ويطرد رجاله دفاعا عن كرامة واحد من أبناء الأشراف المصريين ، وحين يوضــع على النطع لقتله تكفيرا عن جريمته بأمر القاضى يتدخل الأشراف وأولاد الحسينية ليثبتوا للملك أنه كان فى مركز الدفاع عنهم وعن كرامتهم حين قتل أغا الوشاقية ، وتنتهى هذه القضية بدخــول الظاهر بيبرس فى ســـلك الوظائف الحكومية اذ يعينه الملك الصالح أغا للوشاقية مكان الأغا القتيل .

ويستغل المؤلف العلاقة الأزلية بين الخير والشر ليمهد للخير طريقه الى الانتصار التدريجى بأيبك التركمانى

وجماعة المماليك يناصرهم الجاسوس جوان المتنكر على هيئة قاضى قضاة المسلمين القاضى صلاح الدين ، يلتفتون الى خطـر مثـل الظاهر بيبرس ، بايمانه المطلق بمعنى العدالة ، وباخلاصه المطلق لمعنى المساواة وبالفضـائل النفسية والجسدية التى يتميز بها فيحاولون الايقاع به والقضاء عليه قبل أن يستفحل أمره وتلتف الجمـاهير من حوله فيصبح قوة مصلحة حقيقية تهدد بذلك كيانهم وتفضح ضعف هذه المجموعة من المماليك ، كما تجعل وجود جوان داخل القصر الملكى أمرا متعذرا . ومن هذه المعركة بين قوى الشر وبين قوى الخير متمثلة فى الظاهر بيبرس وعتمان بن الحبلى الذى ترسم شخصيته بطريقة تبرز تواكله المؤمن وطيبته الكاملة مع فتوة وشـجاعة وقدرة باهرة على السخرية وذكاء يصل به الى بواطن الأمور مما يكاد يجعله رمزا مجسدا لمصر كلها ، من هذه المعركة يبدأ صعود الظاهر بيبرس فى سلم الدرجات الوظيفية ، وهو فى كل مرحلة من مراحل حياته الوظيفية أداة فى يد الكاتب ليكشف مواطن الفسـاد والضعف والانحلال وليقاوم بجسمه وبراعته منابع الشر ويقضى

عليها .. ثم يصبح ملتزم بنها ، فملتزم الجيزة ، فوالى القاهرة ، ويطهر كلا منها من اللصوص وأبناء الليل ، ويقوّم أمور الدولة ويبعد المفسدين عن مناصبها الرئيسية الى أن أصبح وجوده خطرا حقيقيا يهـدد جوان ، اذ لا مجال لمثله من العملاء الا فى مجتمع فاسد يحكمه بالرشوة ويحمى وجوده بين أفراده بالمال . فيتآمر جوان تآمرا مباشرا على الظاهر بيبرس وتنتهى مؤامرته بكشف شخصيته واضطراره الى الهروب ودخـول القصة فى مرحلة جديدة من مراحل تطورها .

فالقضية المجتمعية التى تعالجها سيرة الظاهر ليست فقط هى موقف العرب من الصليبيين وانما هى أيضـا توحد العرب على أساس من الفرص المتساوية والعدالة الاجتماعية التى تتحقق فى داخـل مجتمعهم نفسه ، ولا يخرج المؤلف بطله الى المعارك الخارجية قبـل أن يخوض معه مجموعة من المعارك الداخلية المتلاحقة موجهة ضد مظاهر الانحلال والفوضى فى المجتمع العربى نفسه ، حتى اذا ما خرج به قائدا للجيوش الاسلامية ضـد الغزوات الصليبية كان لديه من المبررات الطبيعية ما يبرر

به ارتباط الفرسان المسلمين من أبناء المنطقة ارتباط حب ووفاء وولاء بقائدهم بحيث تصبح الأعمال الفدائية التى يقومون بها تحقيقا للنصر ، متجاوبة تجاوبا طبيعيا مع احساسهم بصدق قائدهم ، وبعدالة القضية التى يدافعون عنها ، وبجدوى المعركة التى يخوضونها . كما يستطيع المؤلف بهذا أيضا أن يبرر انتصار قوى الخير الغيبية للظاهر بيبرس وجيوشه ومساندتها له مساندة ايجابية ترمز الى انحيازه الى كفة الخير ، ذلك الانحياز الذى أهّل له مكان الصدارة . فاذا كان تجمع شيحة من غزة والحورانى من الشام والظاهر من ايران والصالح الكردى وأيبك التركمانى وأبى بكو البطرانى من المغرب وأولاد اسماعيل من الفداوية سكان الجبل ، اذا كان تجمع كل هؤلاء تحت راية واحدة يرمز رمزا حقيقيا واضحا الى تجمع الأمة العربية ، فان تبنى السيدة حسنة الدمشقية للظاهر فى الشام وتبنى السيدة فاطمة الأقواسية للظاهر فى مصر ، وانضمام عتمان بن الحبلى من أولاد الحسينية والأشراف الى صف الظاهر بيبرس يرمز الى تجمع ثورى من أبناء

الشعب لا يمكن أن تتم المعارك الخارجية الا بعد أن يحقق أهدافه ويؤدى الى نتائجه .

ولكن سيرة الظاهر بيبرس كغيرها من الأعمال الكبيرة لا تعالج قضية مجتمعية تخدم عصر السيرة وحسب وانما هى تعالج أيضا قضية انسانية كبيرة تبدو من خلال أحداث السيرة وحركة أبطالها ، وهذه القضية هى موقف الانسان من القدر ، اذ تكاد تكون سيرة الظاهر اجابة روائية على مشكلة موقف الانسان من الارادة المسبقة . والظاهر بيبرس تقدم لهذه المشكلة حلا اسلاميا يؤكد أن الانسان حر فى تخطيط مستقبله ومريد فى تحديد طريقه ، ولكنه يتحرك داخل ارادة أخرى سبقت الى تحديد مصيره وتقرير نهايته .

وتظهر هذه المشكلة ظهورا سافرا فى رسم العلاقة بين جوان وشيحة ، يقول المؤلف صفحة (١٣٣) من الجزء (١١) حاكيا على لسان شيحة : « ان الله تبارك وتعالى خلق كهينا يونانيا قبل ظهور النبى صلى الله عليه وسلم يقال له يونان ، وكان ماهرا فى علوم الأقلام ، وكان يحكم على سائر أرهاط الجان . وكان الجان يا أمير المؤمنين فى

تلك الأزمان يصعدون الى السماء ويسترقون السمع من الملائكة .. ويخبرون ذلك الكهين ويقولون يظهر فلان بعد فلان الى أن قالوا له يظهر فى آخر الزمان نبى عربى يقال له محمد ، ويعطل سائر الأديان ، ويظهر دينه المسمى بدين الاسلام والايمان ، ويتناسل من دينه رجال أشراف يقال لهم أولاد اسماعيل ، ويظهر لهم رجل بدوى من عرب غزة ، ويتسلطن عليهم ، ويطيعونه ، ثم انه يتخاوى مع رجل آخر ، يظهر من بلاد العجم ، ويكون سعدهم ببعضهم ، ويطلعون على اثر نبيهم ، ويهدمون الصوامع ، ويبنونها جوامع . ويجعلون الكنايس مدارس ، ولكن يظهر لهم رجل عدو اسمه جوان يجعل لهم مكايد كثيرة ، ثم يقطعونه غصبا فى آخر المدة . فلما سمع الكهين ذلك من الجان يا أمير المؤمنين قال لابد أن أحمى جوان من أعدائه ، ثم انه صار يكتب كل ما أتوا به الجان من أسماء فى صحائف من ذهب ويكتب فى تلك الصحائف جميع المهالك للاسلام وجميع المسالك الى جوان من مولد جوان الى انتهاء مدته .. ورتب له كل ما يلزم فى سائر البلدان ، وصار يرسل الجان الى الأماكن التى يقبض فيها جوان

ويعلمهم ما يفعلون فيها ، حتى اذا ظهر جوان يعتمد على أفعالهم وينجو من أعدائه بأعمالهم .. ولم يزل الكهين الى أن مات وظهر بعده ولده وكان يقال له أينان ، فلما نشأ وجلس مكان أبيه وحكم على الجان وعلم ما يكون وما كان ، فأحضر اليه الجان وأخبروه بما فعل أبوه ، وكان قد هداه الله تعالى الى الاسلام فأسلم ، وأمره الى الله سلم ، وعبد الحنان المنان على ملة خليل الرحمن ، ثم انه جعل يرسل الجان الى السماء ، يسترق السمع منها ، ويأتونه بما يسمعون ، وهو يكتب لكل مهلكة عملها أبوه مسلكا ، ثم أرسل الجان الى المهالك التى عملها أبوه وجعل فيها مسالك لنجاة الاسلام وجعل ذلك فى صحائف من الفضة وقرنها ببعضها فى ذلك الكتاب وسماه كتاب اليونان » .

ثم يظهر جوان فى الدير الذى يعيش فيه عمه كرصمويل وكان صمويل يحتفظ بكتاب اليونان هذا فى ديره ، وحين يشتد عود جوان يطّلع بمحض الصدفة على الكتاب ويقرأ كل ما جاء فيه ، ويطلع على المسالك التى وضعها الحكيم يونان للمآزق التى يقع فيها ، ثم يضع نصب

عينيه أن يتخلص من عدويه اللذين جاء ذكرهما فى الكتاب أحدهما هو شيحة والثانى هو الظاهر بيبرس ، ويبـدأ فى رحلة البحث عن شيحة الى أن يعثر عليه ، وكان اسمه وهو طفل شعبان ، وعثر عليه فى أحـد كتاتيب غزة ، ويستطيع أن يسرقه ويعود به الى الدير لقتله ، وكان شيحة فى ذلك الوقت كما قلنا غلاما صغيرا فيشفق عليه كرصمويل كما يشفق عليه البرتقش صديق جـوان ، ويستنقذان الغلام منه ، ويطلبان منه أن يتركه حتى يشتد عوده ثم يقتله ، ويقبل هو هذا العرض حتى يستطيع أن يتشفى بتعذيب الفتى الصغير واذلاله قبل قتله ..

فها هو ذا جوان يعرف الغيب ويدرك أنه من المقدر أن يقتله شيحة مقطعا على عربة كلاب ، ولكنه يسبق هنا القدر ويحصل على غريمه ليقتله ، ويبطل حكم القدر ، ولكن قوة ما تستطيع أن تؤجل مصرع الغلام ، وهذه القوة أيضا هى التى تقود شيحة الى مكان كتاب اليـونان فيقرؤه خلسة ويعرف ما فيه ، وحين يكتشف جوان الأمر يغلق عليه الطابق ويتركه ليموت ، وفى الطابق منفذ من المنافذ التى أعدها الحكيم اينان لشيحة قبل ذلك بزمان

طويل ، فاذا ما مضى على الفتى أربعة أيام محبوسا فى الطابق وحده يقضى وقته فى قراءة كتاب اليونان ، يخرج عليه خادم من الجـان ، ويدله على حقيقته كما تهديه الذخائر التى تركها له الحكيم اينان لتساعده على تنفيذ ما خطه القدر فى لوحه وهو هزيمة جوان والقضاء عليه ، فيهديه سوطا وشاكرية وبدلة للملاعيب والحيل وجرابا ، كما يدله على طريقة الخلاص من الطابق الذى حبسه فيه جوان ، ويرشده الى مكان أحد أولياء الله الصالحين ، هو عبد الله المغاورى الذى يبدأ فى تثقيفه وتهذيبه واعداده للجولة الثانية التى يخوضها مع جوان . وبينما يحس جوان أنه قد تغلب على القدر وقضى على عدوه الذى رصد لقتله فيهتم بتثبيت مكانته كراهب مطلع على بواطن الأمور ، عارف بأمور الغيب ، نجد شيحة مختفيا تمامـا يتأهب بتزويد نفسه واعدادها لمعاركه القادمة التى سخره القدر من أجلها . ومهما طالت هـذه المعارك وتغيرت أشكالها وأماكنها واستعمل فيها جوان كل حيله وقدرته كما استعمل فيها شيحة كل ذكائه ومهارته ، لا تستطيع اطلاقا أن تغير من الأمر المرسوم شيئا ، كما لا تستطيع

أن تمحو صفحات سبق أن خطت فى لوح القدر ، ولابد لما كتب فيها أن ينفذ ، وارادة الانسان مهما كانت حرة ومهما تحركت تصرفاته نابعة منها منبعثة من وحى اللحظة ومتأثرة بطبيعة الأحداث المتغيرة ، الا أنها تتحرك فى دائرة مقفلة ، حدودها رسمت من قبل ، ونهايتها تحددت بأمر الارادة العليمة التى ترسم مصائر الناس ، وتحدد نهايتهم ، ولحظتها ومكانها .

هذه هى المشكلة الأساسية التى تعالجها هذه السيرة . القضية تقول : ان قضاء الله نافذ وانه يعلم العلم المسبق ، أما الانسان فهو حر ، يتحرك كما يشاء ، دون أن يستطيع أن يغير من هذه الارادة المسبقة شيئا ، وحتى لو علم الانســان ما كتب له ، فهذا العلم لا يستطيع أن يغير المكتوب ولا أن يمحو ما سبق تسطيره فى لوح القدر . وأمامنا على هذا مثلان ، الأول هو جوان الذى يعلم ما سطر له ويحاول أن يغير هــذا المسطور بكل قوته وارادته ، وبكل ما يقع تحت امكانياته من وسائل ، ولكن هذا الذى يفعله لا يزيد عن كونه تنفيذا لنفس الارادة التى يحاول أن يتخلص من حكمها . فهو حين يحاول أن

يتخلص من شيحة وهو طفل انما يقود الطفل الى حيث كتاب اليونان ليقرأه ويلتقى فى المكان المحدد والوقت المحدد بمن يقوده الى الذخائر التى رصدت من أجله ليتغلب بها على خطط جوان وليعرقل بها مساعيه ، ثم ليحصل بها على القوة التى ستجعله قادرا على تنفيذ ارادة القـدر وتقطيعه على عربة كلاب .

أما المثل الثانى ، فيمثله المعسكر الآخر وفيه يعرف الانسان قدره ولكنه يستسلم اه ولا يستطيع أن يغيره لأنه يعلم أن ارادة الله فوق كل ارادة وأنها ستنفذ دون ريب . من هؤلاء الفـداوية [1] أبناء اسماعيل الذين يطّلعون فى كتبهم على أمر الظاهر بيبرس وما سيصير اليه ، فيضعون أنفسهم فى خدمته ويسخرون قواهم فى تذليل العقبـات أمامـه ، وحين ينقذونه من عيسى شرف الدين باشا الشام يرفضون ما عرضه عليهم من أموال ويقولون له فى صفحة (١٥١) من الجزء الثالث « اننا لا نأخذ منك أموالا فى هذا الآن الا اذا آن لك

---

(١) راجع (الظاهر بيبرس فى الأدب الشـعبى) عبد الحميد يونس .

الأوان ، وأخذ بيدك الملك الديان ، وصرت ملكا وسلطان فاننا نبقى كلنا نغازى فى سبيل الله ونقاتل بين يديك أعداء الله ، ونأخذ منك العطا والمواهب والخيول والجنايب ، لأنك مالك غيرنا حبايب ، وقد رأينا ذلك عندنا فى الجفر والكتايب » .

ومن هؤلاء الملك الصالح أيوب الذى يرسمه المؤلف زاهدا متبتلا ، لا يأكل الا « الدقة والقــراقيش » ، ويحارب بسيف من خشب أمضى عند اللقاء من سيوف الحديد ، ويحتفظ لنفسه بمال ، وانما يعيش من صناعة يديه ، فيجدل الخوص ويصنعه أسبتة ، وقد اصطفاه الله لزهده ، وصلاته وعبادته فخصه بما يخص به أولياءه من القناعة والعدل والكرامات والقدرة على العلم ، بما كان وبما سيكون ، ولكنه رغم علمه هذا لا يتدخل فيما هو مكتوب الا بالقدر المرسوم له ليكون أداة فى تنفيذ ارادة القــدر ، فهو الذى يرســل وراء النخاس ليشترى له مجمــوعة من العبيــد يحددهم له بصفاتهم وأجناسهم وعلاماتهم ، ومعهم الصــفات التى لا يمكن أن تنطبق الا عــلى الظاهر بيبرس ، ويخصص لشرائه هو بالذات

صرة مقفولة لا تفتح عند البيع وانما يقبل البائع أن يبيعه بها مغلقة مصرورة كما هى ، ورغم دهشة النخاس من هذا الطلب الغريب ، الا أنه يصدع بما أمر به ، ويجد المماليك الذين وصفهم الملك الصالح له ومنهم أيبك التركمانى وأيدمر البهلوان وقلاوون فيشتريهم ، كما يجد الظاهر بيبرس مريضا على شفا الموت ، ولكنه يجد عنده الصفات التى طلبها الملك الصالح فيشتريه ، ويقبل صاحبه المصارع محمود العجمى ذلك الشرط الغريب الذى يقضى بأن يبيع ما يملك بصرة مجهونة لا يعلم ما فيها ، وذلك حتى يتخلص من عبء الظاهر الذى يراه مريضا لا أمل فى شفائه ، يسير نحو الموت بخطوات حثيثة . وتكمل دائرة القدر الغريبة حين يلتقى الظاهر بعد ذلك بفترة طويلة بمحمود العجمى المصارع فى القاهرة ، ويتحداه فى الصراع ويقتله ، ويحمل المماليك جثته فى تآمرهم مع جوان الذى أصبح بحيلته قاضى قضاة مصر ليطلبوا دمه من الظاهر ، ويحكم عليه القاضى أمام السلطان بالقتل ، فينتهى جوان من خصمه الثانى كما ظن أنه انتهى من خصمه الأول .. ولكن أمام السلطان

تنكشف الحقيقة وتظهر براءة الظاهر فيأمر السلطان أى الصالح أيوب وزيره الأغا شاهين الأفرم أن يصادر ما مع المقتـــول فيجد معه الصرة مغلقة كما هى ، ويســـتردها السلطان الصالح دون أن يفتحها وهو يقول أموالنـــا وعادت الينا . والواقع أن هذه القصة وان كانت ترمز الى تحرر الظاهر لأن صاحب المال الذى اشتراه استرد ماله الذى اشتراه به الا أن الدلالة الهامة فيها هى موقف الملك الصالح من مشكلة القدر ، الذى هو أداة مسخرة لخدمته رغم أنه يعرف ولكنه لا يتكلم ، وان تحدث فانما يتحدث بالرموز التى لا يعرفها الا هو ومن انكشف عنه الحجاب من عباد الله الصالحين أمثال عتمان بن الحبلى حينما يصلح أمره ويعرف طريق الهداية والايمان ، ويبدأ فى طريق العبادة خالص النية ، صـــافى القلب ، ويدور الحوار بينهما كثيرا فى المجلس برموز يفهمانها وحدهما دون أن يدرك الباقون شـــيئا مما يدور . وفى صـــفحة (٢٨٠) من الجزء الخامس يدور مثل هـــذا الحوار فى الديوان الملكى ، اذ يتحدى القاضى صلاح الدين عتمان ابن الحبلى أمام السلطان وعتمان يعرف حقيقة أمره بما

أوتى من كشف فيقول عتمان محدثا السلطان « اتكلم يا أبو قوطة ، قال الملك ، لا يا شيخ عتمان نحن ناس من الأحرار كاتمين الأسرار ، يا قاضى اسكت لأن عتمان ظلامه ما فيه نور أبدا ، فاحترس لنفسك منه لئلا يكشف الغطا ولا يبالى بأحد أبدا » .

وينحصر الموقف فى أن أصحاب هذه الفئة يؤمنون بالقدر ايمانا كاملا ، كما يؤمنون بأن لكل شيء سببا ، وأن العناية الالهية توجه الخير وترعاه ، وأن مظاهر الشر التى يرونها ويلمحـونها ، أو يعرفونهـا بما أوتوا من كشف ، انما هى مسببات لانتصار الخير ، ذلك الانتصار الذى يأتى فى حينه دون أن تستطيع الارادة البشرية أن تؤخر ميعاده ، وأن تتقدم به مهما كانت قيمة الخطـر المباشر الذى يتعرض له الخير ، فلابد للاستسلام لقضاء الله وحكمه ، لأن هذا الابتلاء مكتوب ومقدر ولابد من نفاذه ، ويأتى هذا الكلام مباشرة على لسان الملك الصالح فى حديثه لعيسى شرف الدين صفحة (٢٠) فى الجزء (١١) : « يا رجل يا عيسى اعلم أنه هذا هو الغلام الذى كان ضعيفا ، انظر الى فعل ربك ، كيف أنه يخفض العالى

ويرفع الواطى ، انظر يا عيسى كيف أن الله أيده بالقبول ، ومن عاند مسعودا مات مكمودا » .

وحين يتآمر أيبك والأمراء على القاضى ، ويستأجرون لسرقته مشاهير اللصوص الذين عرفوا بجرأتهم وشراستهم ومهارتهم ، لا يستطيع عتمان وقد أوتى من الكشف ما يجعله مدركا للأخطار التى يتعرض لها صديقه الظاهر ، الا أن يبذل محاولة ضئيلة ساذجة لحماية صديقه ، ولو أن المحاولة نفسها تكشف عن عدم ايمانه بجدواتها ، فيتركها ويترك صديقه لرحمة العناية الالهية ، ويقول المؤلف ساردا أحد هذه المواقف صفحة (٢١) الجزء (١١) : « ولما جن الليل وصلّوا صلاة العشاء ، دخل الأمير الى صيوانه يريد المنام ، واذا بعتمان داخل عليه ، فقال سلام عليكم ، قال بيبرس عليكم السلام ، قال عتمان قوم بنا نلعب النطة ، فقال له دعنى أنام أنا ما ألعب شيئا ، قال عتمان خلينا نتحدث مع بعضنا الليلة واترك النوم ، قال الأمير انصرف عنى يا عتمان ، قال عتمان نلعب الكورة ، قال الأمير أنا لا ألعب شيئا ، قال عتمان وأنت الآخر جاتك داهية من عند الله ولكن مدركاك

فيها الألطاف ، فقال له سر أنت الى حال سبيلك ، فتركه وسار وهو ينادى بعلو صوته ادركيه يا مبرقعة الأنوار » . ويترك عثمان صديقه ليمر بالتجربة المقدرة له والتى يؤسر فيها ويوشك على الموت .

وحين يلتقى عثمان بن الحبلى بمعروف بن حجر سلطان الفداويين ، وكان معروف فى قمة سلطته وقدرته وقد تربع علـى عرشه بين رجـاله ، ووقف منه عثمان وصديقه الظاهر بيبرس موقف المتخاذل الضعيف أمـام صاحب السلطة القوى ، ينظر اليه عثمان وتترك الحديث للمؤلف اذ يقول : « ثم تأمل اليه عثمان وبكى ، فنزلت دموعه على خدوده وقد تعجب معروف من فعله هـذا ، وقال عثمان يا خال معروف !الله يفرح ذاتك ، ويلطف بك فى القضاء والقدر ، ويساعدك الله على ما كتبه علـى جبينك وسطر بالقلم ، وا ولداه يا خال معروف ، والله أنت خسـارة فى ذلك ، ولكن ما بيدنا حيـلة يا خال معـروف » . ورغم أن الظاهر لم يفهم شيئا وكذلك معروف لم يفهم شيئا ، الا أن جوا من الغيوم يسيطر على هذا الدعاء الغريب الذى سرعان ما تثبت الأيام القادمة

صدق ما به من نبوءات ، اذ يفقد معروف ولده ، ويتغرب بحثا عنه ويقع فى يد أعدائه فيأسرونه ، ويوضع فى طابق تحت الأرض مصلوبا على أعمدة من حديد سنوات طويلة تنفيذا لحكم الله وقضائه . ونحن نشهد من هذه القصة أنه لا مهرب من قضاء الله وأنه لابد من الاستسلام له ، فكل شىء مكتوب . ويقول الملك الظاهر لوزيره شاهين فى صفحة (٦٠) من الجزء (١١) : « يا حاج شاهين ، كل شىء له أسباب ، سبحان مسبب الأسباب ، أهل السعادة مكتوبين ، وأهل الشقاوة مكتوبين ، ومن يعارض مولانا فى حكمه هذا الذى حكم به الاله القديم ، قال الوزير آمنت بالله وما معنى هذا الكلام ، قال له اسكت يا راجل أنا عبيط ، لا تأخذ لى على كلام » . فهذا هو الملك الصالح قصة السلطة والقوة فى العالم الاسلامى فى ذلك الوقت ، ولكنه لا يستطيع رغم معرفته بخطورة ما سيحدث عليه وعلى أمته أن يبذل أى محاولة لتغيير شىء مما قدر ..

وقمة هذا الموقف تتضح بعد موت الصالح أيوب حين يتولى أولاده ويصل الحكم الى حفيده الذى يعيش

منعزلا فى مقام أبى الشام بمصر عتيقة ، فيسير اليه الركب ليعلنوه بالسلطنة ، ونترك الحديث للمؤلف فى صفحة (١٦٤ جزء ١٤) : « قالوا اننا نريد أن تكون سلطان علينا ، فقال لهم حتى أشاور على شيخى ، ثم دخل الى المقام فاستغيبوه ، ودخلوا يدورون عليه ، فلم يجدوا له خبرا ، ولا جلية أثر ، فقال لهم خادم المقام انه سار الى مقام الأستاذ الشافعى ، فركب الوزير والدولة وساروا الى الامام ، واذا به جالس يعبد الله فى المسجد ، فلما رآهم قال لهم ، أتتم أتيتم خلفى ، قالوا نعم ، قال حتى أشاور وتركهم وغطس من بين أيديهم ، فسألوا خادم الامام ، فقال انه سار الى مكانه الذى أتى منه ، فرجعوا ، وهكذا سبع مرات ، وبعد ذلك قال لهم يا اخوانى رضيت بما قدّر الله وسطر » . وهذا هو السلطان الأشرف أيوب الذى يموت مقتولا .. والذى يبدو من هذه المحاولات المتكررة التى تستمر سبع مرات أنه كان يعرف القدر الذى يترصده بعد أن يتولى السلطة ، ولكن لا منجاة ولا مهرب .

ونحن قد ركزنا لك على هذه الأمثلة لنبين لك الموقف

كما يحاول أن يصوره المؤلف مظهرا الفرق بين الفئة التى تحاول أن ترد قضاء الله متحدية اياه متمردة عليه ، تحسب أنها تستطيع أن تغيره ، ممثلة فى جوان ، وبين الفئة الأخرى المؤمنة التى تعرف قضاء الله وتستسلم له ، فى ايمان وثقة فى أن وراء كل شىء حكمة ، وأن ما هو مكتوب مكتوب ، ولكنها تؤمن أيضا بأن هذا المكتوب ينصر الخير دائما ، وأن ما هو شقاء وعذاب انما هو وسيلة الى نصرة الخير وهزيمة الشر .

والواقع أن المؤلف يتعمد فى أحداثه الروائية ، أن يجعل موقف الشر الذى يصيب المؤمنين ، وسيلة لنصرتهم ، وتبريرا لفائدة عامة تعود على المجموع ، فلولا وقوع شيحة فى يد جوان الذى قرر أن يقتله ما استطاع أن يطّلع على كتاب اليونان ، وأن يتزود بالذخائر التى تؤدى آخر الأمر الى هزيمة جوان ، ولولا المصائب التى تحيق بالظاهر بيبرس وتكاد تورثه التلف ما تعرف على أعوانه الذين ينصرونه بسيوفهم وينصرون معه الاسلام والأمة العربية جمعاء ، ومرة يخلصه من مأزق الفداوية ويتآخى معه ويصبحون من رجاله ورجال الدولة ، ومرة

ينقذه ابراهيم الحورانى ليصبح أشد الفرسان عتوا وقوة ، وأكثرهم شجاعة فى صفوف المسلمين ، ومرة ينقذه جمال الدين شيحة الذى سيصبح كما نسمى فى العصر الحديث رئيس المخابرات الاسلامية والحماية الحقيقية لجيوش المسلمين من مؤامرات جوان والجواسيس الصليبيين . ومن سلسلة المآزق التى يقع فيها الأبطال ، تتولد الفرص لانتشار المعارك ضد الصليبيين ، والمبررات للهجوم عليهم فى ديارهم وتثبيت الفتوحات الاسلامية والعربية ، كما تتولد المبررات لتطهير جسد الأمة العربية نفسها من مواطن الضعف وأسباب الفساد .

فحقيقة أن الانسان أسير قدره ، ولكنها حقيقة أيضا ان هذا القدر ما كتب الا لحكمة ، لا يستطيع أن يدركها أو يفهمها ، الا من أوتى من الايمان ما يجعله يدرك عدالة الارادة السماوية . ولكن رغم هذا المكتوب فان الانسان حرّ لأنه لا يعرف قدره ، فهو يتصرف بملىء ارادته وكأنما يصدر عن نفسه هو ، تحركه نزواته ورغباته ، كما تحركه آماله ومثله ، ويضطرب فى الحياة كما يشاء ، تتحكم

فيه الظـروف والملابسات ويحاول هـو أن يتحكم فى الظروف والملابسات شاعرا بقدرته ، مدلا بقوته ، متمتعا تمتعا تاما بما تمليه عليه ارادته ولكنه فى هذا كله انما يتحرك داخل اطار ترسمه قوة أقدر منه ، لا فكاك له من حكمها ، ولا يستطيع مهما تخبط ، كما يتخبط جوان ، أن يفعل حيالها شيئا ، فهو مجرد أداة فى يد القدرة الالهية ترسم له دوره ليؤديه ، كما ترسم للآخرين أدوارهم ، وقد سبق العلم عندها بكل شىء ، جاعلة من كل هذه الأدوات وسيلة لتنفيذ ارادتها فى تطوير فهم النـاس للحياة ، واتاحة الفرص أمام البشرية لتنمو ، وأمام الخير لينتصر ، وأمام النور ليزداد اشراقا فى قلوب الناس .

فسيرة الظاهر بيبرس وان كانت تعالج قضية مجتمعية هامة ، هى قضية العناصر المكونة للشعب العربى ؛ شعب هذه المنطقة محاولة أن تؤكد وضعه كوحدة رغم اختلاف الأصول التى تنبع منها أجزاؤه ، ومثبتة عناصر هـذه الوحدة التى تتأكد أهميتها لموقف المنطقة العربية السياسى الموحد ، والتى تنبع عناصرها من التسليم بهـا كحقيقة معاشه مما أسميناه الواقع النفسى للمجتمـع المترابط

المتكامل ، ومن المعنى الحضارى المتشابك الذى تؤكده الأحداث المشتركة التى جمعت وقربت وأزالت الفروق على مدى الزمن ، والاشتراك اللغوى الذى يحدد للمنطقة لغة واحدة تنطقها فتحدد جرس الأفكار ، وتؤكد تقارب قوالب التعبير ، والاشتراك الدينى ، الذى يجعل للمنطقة دينا واحدا يرسم تصورا موحدا لمعنى الاله ، ويقدم تفسيرات موحدة لفلسفة وجود الكون ، ولمكان الانسان من هذا الكون ، ولمعانى الشر والخير والسلوك والمثل العليا لكل أبناء المنطقة ، هـذا الى جوار الوحدة الجغرافية ، أى وحدة الموقع التى تجعل منها كلا متكاملا من الناحية الاقتصادية ، كما تجعل الخطر الذى يهدد أى جزء منها خطرا مشتركا يهدد المنطقة بأثرها .. والسيرة تعالج هذه القضية معالجة روائية تعتمد عـلى الحدث والقص ، لا على الاعطاء المباشر ، والشعارات الخطابية .

وسيرة الظاهر بيبرس وان كانت تصـور موقف المجتمع العربى تجاه المجتمعات المعادية التى تحاول تحطيمه والقضاء عليه ، اما بالدسائس الداخلية ، واما بالحـروب الخارجية ، واما بالخديعة واما بالسيف ، باذلة فى هذا كل

جهد وطاقة ومال ، مما يرسم صورة روائية للحروب الصليبية التى خاضتها الأمة العربية ، ومستغلة هذه الحروب للكشف عن مواطن القوة الجسدية والنفسية فى أفراد هذا الشعب العربى كل على حدة ، يتفانى كل منهم فى بذل كل ما يستطيع من أجل نصرة القضية الموحدة ، وراسمة صورة القوة الهائلة التى يتمتع بها هذا الشعب كوحدة يستطيع أن يهزم بها أعداءه وأن يوقف أى غزو خارجى بل وأن يرد الصاع صاعين ، لكل من ينتهك حرمة أرض بلاده .

سيرة الظاهر بيبرس مع هذا كله ، تعالج القضية الانسانية الكبيرة ، قضية موقف الانسان من القدر ، علاجا روائيا ، يكشف عن موقف تبدو فيه الأصول الاسلامية واضحة مدلة ، فهى قضية الانسان من القدر ، الانسان بكل عجزه وقصوره والقدر بكل قوته وجبروته، ولكنه الانسان المؤمن ، ولكنه القدر الرحيم العادل ..

حاشية : يذكر الدكتور جمال سرور فى كتابه (دولة الظاهر بيبرس فى مصر) أن محيى الدين بن عبد الظاهر =

= كتب (السيرة الظاهرية) نقل عنها النويرى فى نهاية الارب الا أن هذا الكتاب لم يصل الينا ٠٠ ومن الدراسات التى قدمت عن هذه السيرة كتـــاب الدكتور عبد الحميد يونس (الظاهر بيبرس فى الأدب الشعبى) ٠٠ وهنـــاك محاولة لتقريبها للمفاهيم المعاصرة قام بها الشاعر المرحوم بيرم التونسى ، وطبع منهـــا جزء واحـــد فى ١٥ ص وهو تحت رقم ٢٥٠٤٦ (ز) بدار الكتب ٠

سيرة على الزيبق

إذا كان قد أمكننا حتى الآن أن نرتب السير الشعبية ، من حيث الحقبة التاريخية التى تعالجها ، ومن حيث الافتراضات التى قدمناها للزمن الذى كتبت فيه ، فوضعنا سيرة عنترة فى المقدمة تليها سيرة ذات الهمة فسيرة الظاهر ، فنحن نحب أن نضع سيرة على الزيبق فى نهاية هذه السلسلة التى تكاد تكون تأريخا متسلسلا للحياة العربية منذ الجاهلية حتى العصر المملوكى ، ذلك أن سيرة على الزيبق تتعلق بحياة القاهرة فى ذلك العصر المملوكى ، وتدور أحداثها فى حواريها وأزقتها ، وتنقل لنا صورا من حياة الناس فيها ، وظروف المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وعلى الرغم من أن كاتب السيرة يحدد لها عصرا زمنيا هو عصر السلطان أحمد ابن طولون ، الا أننا نفترض أن هذه السيرة كتبت بعد هذا بكثير ، وأن أحداثها أيضا تقع فى زمن متأخر عن

ذلك الزمن الذى شاء المؤلف أن يوهمنا أنها وقعت فيه . ويساعدنا على هذا الافتراض ، ذلك الاضطراب الذى يقع فيه المؤلف ، فهو يضع على دست الخلافة فى بغداد الخليفة هارون الرشيد [١] الذى استمرت مدة خلافته من (١٧٠ الى ١٩٣ هـ) بل وينهى السيرة بمشهد وفاة هارون الرشيد ، بينما يجعل سلطان مصر أو (عزيزها) أحمد بن طولون الذى تستمر مدة ولايته لمصر من سنة ٢٥٤ الى ٢٧٠ هـ . وواضح أن وقوع المؤلف فى هذا الخطأ التاريخى يجعل من الصعب تصديق تحديده الزمنى للفترة التاريخية التي يحددها لوقوع أحداث هذه السيرة ، كما أن المؤلف يساعدنا على الشك فى حديثه حين يجعل بعض الأحداث تدور فى الأزهر الشريف الذى أقيمت أول صلاة فيه من بعد الانتهاء من بنائه سنة ٣٦١ هـ مما يجعل عصر أحمد بن طولون يتوسط حدثين ، أحدهما يتم قبل زمانه بفترة طويلة وهو خلافة هارون الرشيد ،

---

(١) راجع (تاريخ الاسلام السياسى) الجزء الثالث . للأستاذ حسن ابراهيم حسن .

والثانى يقع بعد زمانه بفترة طويلة أيضا ، هو وجود الجامع الأزهر كجامعة اسلامية .

من هذا كله نشك فى التحديدات الزمنية لوقت حدوث أحداث السيرة ، وتفقد بهذا ارتباطها بالتاريخ الرسمى الذى تحدده أسماء الملوك والخلفاء . فبهذه السيرة اذن تقع أحداثها فى القاهرة فى عصر لم يشأ الكاتب أن يذكره ، وانما استعار له من بقايا ثقافاته ، أسماء بعض الخلفاء والملوك الذين اشتهروا أو عرفوا لدى عامة المتلقين من أبناء الشعب الذين قصد اليهم بهذه السيرة . واختيار اسم هارون الرشيد سلطانا على بغداد له ما يبرره لأنه يكاد يكون أشهر الخلفاء العباسيين عند عامة الناس لما ارتبط به عصره من امارات البذخ والترف ، وحكاياته الممتعة التى تعكس صورة للدولة فى حالة طمأنينة ، وفى قمة الثراء والأمن ، وقد تردد اسم هارون الرشيد لا فى هذه السير الشعبية وحدها وانما فى كثير غيرها من الأعمال الشعبية الأخرى كحكايات أبى النواس التى يجعل القصاص الشعبيون هارون الرشيد والحسن ابن هانىء أبو نواس شاعره وجعفر البرمكى وزيره

ومسرور سـيافه محور أحداثها وطرائفها وفكاهاتها ، وكذلك تبرز هـذه الظاهرة بوضوح فى الموسـوعة الشعبية القصصية الكبيرة ألف ليلة وليلة ، التى تخصص معظم قصصها المجمعة لتدور حول ثالوث يتكون من هرون الرشيد ومسرور وجعفر وتعكس صورا من حياة بغداد عاصمة الخلافة تحيلها الى مدينة أسطورية حياتها خمر ونغم ومغامرات عاطفية وفنية ، ولهذا فليس عجيبا حين يحاول القصّاص أن يجعل سيرته تدور فى عصر اسلامى بعيد عن شبهة حدوثه عن عصره هو ، أن يختار اسم هرون الرشيد ، يستتر وراءه ويلصق أحداث سيرته بعصره [١] ، والواقع أن هناك ملحوظة تتعلق بموقف القصاص الشعبيين من أسماء الملوك الذين يرمزون بهم الى أحداث تدور فى بلادهم دون اهتمام حقيقى بالتاريخ ، وهى أن كسرى يمثل دائما ملك الفرس ، ويحل اشكال القصاصين فى البحث عن اسم تاريخى فارسى حقيقى ، بينما يحل اسم قيصر مشكلاتهم فى الحديث عن ملوك

---

(١) راجع (الف ليلة وليلة) للدكتورة سهير القلماوى ص ٧٤ .

الروم ، ويلجأون الى اسم هرون الرشيد لتغطية حديثهم عن المسلمين .

أما اللجوء الى اسم أحمد بن طولون[١] فربما يعود هذا الى أن أحمد بن طولون كان أول من استقل بمصر استقلالا حقيقيا عن الدولة العباسية، وجعل لها كيانها الذاتى، كما — ربما — يعود الى استمرار اسمه فى ضمير الناس لبقاء جامعه ، جامع ابن طولون .. شاهدا حيا يذكرهم به ، وبولايته على مصر . واذا ما سلمنا بأن التحديد الزمنى لأحداث القصة غير صحيح ، جابهنا سؤال بديهى هو لماذا لجأ القصاص الى تغطية زمان وقوع قصته ، وجعلها معقلة بين عصور التاريخ ، لا نكاد نستطيع أن نحدد لأحداثها زمنا ؟ والاجابة البديهية أيضا على هذا السؤال تأتى من أحداث السيرة نفسها ، وما تعرضه من صور مجتمعية ترسم فسادا فى النظام القائم وضياعا لمعانى الأمن والاستقرار فى حياة الشعب المصرى ، واختفاء لضرورات العدالة والحزم بين السلطات الحاكمة ، ويكفى

(١) ربما كان لسيرة (أحمد بن طولون) لابن الداية أثر فى ذلك .

أن بطلها واحد من الشطار أو اللصوص ، كما يكفى أن مغامراتها تدور بين مجموعة من المقدمين الذين يشتهرون بالحيل والخداع ، وتقوم أعمالهم على تسلق القصور وسرقة النفائس وتحدى السلطات ، ولا تجد السلطة القائمة حلا لمشكلاتها الدائمة معهم الا أن تعترف بوجودهم ، فتوليهم المناصب الرئيسية وترتب لهم المرتبات السنوية والمخصصات من بيت المال ، وتفرد لهم القاعات والأماكن يقيمون بها ، وتسمح لهم بأن يسيروا فى مواكب من أتباعهم ، لا تقل فخامة عن مواكب الملوك أنفسهم .

وان كان فى هذه السيرة تعريض حقيقى بالحالة الاجتماعية لعصر المؤلف ونقد روائى للفساد الذى استشرى فى أجهزة الحكم ، حتى ضاع معنى الأمن ، وأصبحت اليد العليا للبطش والقوة لا للقانون والنظام ، فان السيرة أيضا تحمل فى أحداثها هجوما مباشرا على أصحاب السلطة أنفسهم ، اذ ترسمهم مجموعة من اللصوص وقطاع الطرق ، وصلوا الى السلطان عن طريق التفوق فى السرقة ، والامعان فى البطش والغدر والمهارة

فى اللصوصية ، حتى ليجعل مقدم درك بغداد أحمد الدنف زعيم اللصوص ، وتغلبه على هذا المنصب امرأة فتتولى هى درك بغداد بحيلها ومكرها ، وهى دليلة المحتالة التى لا يورد المؤلف اسمها الا مقرونا بصفة الاحتيال ، ويغلبها هى على هذا المنصب بعد ذلك ، على الزيبق ، الذى تفوق على لصوص مصر وشطارهم ، حتى تولى درك مصر ، ثم راح يجرب حظه ليتولى درك بغداد . وحين يتولى هذا المنصب بعد هزيمة دليلة المحتالة ، يصبح عليه أن يحافظ على مكانه ومنصبه من مغامرات غيره من المحتالين واللصوص ، وكأن هذا المنصب كرة يتخاطفها اللصوص ، ولا تستقر الا فى يد أكثرهم ذكاء ، وحيلة ، وقدرة على المكائد والمناصف ، ومهارة فى اللصوصية والاحتيال . ومعلوم أن مقدم الدرك هو رئيس الشرطة والمحافظ على الأمن ، وليس أكثر من هذا سخرية من الجهاز الحاكم ، الذى يبدو فريسة بين أيدى اللصوص[١] . وربما كان هذا تعريضا

(١) راجع (عصر سلاطين المماليك) للأستاذ محمود رزق سليم .

بالقائمين على الحكم من المماليك ، اذ تشبه حياتهم فى فترة من فترات تاريخنا ، هذه السمات ، فهم يتنافسون بمظاهر القوة والبطش والحيل والخداع والغدر ، ويستطيع أكثرهم قوة ومهارة أن يتولى أمور السلطنة فى مصر ، الى أن يظهر من هو أقوى منه فيقصيه ويتولى مكانه ، وهم فى مجموعهم فى نظر عامة الشعب مجموعة من اللصوص ، وقطاع الطرق ، يتسابقون على السيطرة والنفوذ ، وسرقة بعضهم البعض[1] .

من هنا رجحنا أن تكون هذه السيرة تالية فى كتابتها للظاهر بيبرس ، اذ تنتهى الأحداث الحقيقية لسيرة الظاهر بوفاة الناصر بن قلاوون ، بينما تشهد فى نهاية سيرة على الزيبق ، اسم الناصر يطلق على عزيز مصر باعتباره واليا عليها من قبل الخليفة هرون الرشيد ، وهذه الفترة التى شهدت حكم مجموعات متتالية من أمراء المماليك ، كثر بينهم القتل والغدر منذ الظاهر حتى طومان باى الغورى ، تعتبر أحلك فترة فى التاريخ المصرى من حيث نظام الملك ، وطريقة عمل أجهزة الحكم . فتكون سيرة على

(١) راجع (الفتوة عند العرب) للأستاذ عمر الدسوقى.

الزيبق ، عرضا روائيا نقديا للحياة فى مصر أيام حكم هؤلاء المماليك ، وتكون أيضا ، استمرارا لسلسلة السير ، من حيث تناولها للعصور التاريخية فتتعرض للفترة التى وقفت عندها سيرة الظاهر بيبرس ، وليس هذا وحده هو دليلنا على مكان هذه السيرة التاريخى من باقى السير وانما تؤيدنا فى هذا دلائل أخرى :

من هذه الدلائل أن سيرة الظاهر لا تنتهى الا وقد آقام قلاوون قاعة للزعر والفداوية وأصبح لهؤلاء المقدمين الذين اشتهروا بالفروسية والمهارة والحيل مكان معترف به فى بلاط سلطان مصر ، وكثر القتل والذبح بين سلاطين المماليك . بينما تبدأ سيرة على الزيبق بوجود هذه القاعة ، قاعة الزعر ، وغيرها من القاعات للمقدمين والفداوية كظاهرة اجتماعية ثابتة ، كما يدور الخلاف بين المقدمين ، ويشتد الصراع بينهم ، كظاهرة مجتمعية مسلم بها . ومن هذه الدلائل أيضا ، شخصية فاطمة بنت القاضى نور الدين أم على الزيبق التى تدور دائما باحثة عن ابنها (على) لتخلصه من المآزق وتخلصه من الأخطار ، وهذه الشخصية تذكرنا بشخصية ذات الهمة ،

وموقفها من ابنها الأمير عبد الوهاب ، وحمايتها الدائمة له ، بل ان ذات الهمة اسمها الحقيقى فاطمة وتتميز بقدرتها وفروسيتها وشجاعتها وتذكرنا أيضـــا بشخصية فاطمة الأقواسية التى تتبنى الظاهر بيبرس فى مصر فى ســيرة الظاهر ، والسيدة حسنة الدمشقية التى تتبناه فى الشام ففكرة الأم التى تحمى ولدها فكرة منحدرة من سيرة ذات الهمة فسيرة الظاهر لتلعب دورا هاما فى سيرة على الزيبق ، واذا كان المؤلف فى سيرة ذات الهمة قد أجهد نفسه لتبرير هـــذا التعلق من فاطمة ذات الهمة بابنهـــا عبد الوهاب ، الذى هو رمز عفتها ، وامتداد لبطولتها ، واذا كان المؤلف قد أجهد نفسه فى رسم العـــلاقة بين الظاهر بيبرس والسيدة فاطمة الأقواسية مرة والسيدة حسنة الدمشقية مرة أخرى . الا أن المؤلف فى على الزيبق اكتفى بأن يخلق شخصية الأم التى تتصف بالفروسية وتكرس حياتها لانقاذ ابنها من المآزق والمهالك دون أن يجهد نفسه فى البحث عن تبرير روائى ، اذ أصبحت مثل هذه الشخصية من التقاليد المعروفة للســير الشعبية السابقة له .

ومن هذه الدلائل أيضا تطور معنى البطولة ، تطورا ينسجم مع التطور المجتمعى فى المجتمع الاسلامى ، فبينما نرى البطولة فى عنترة هى الفروسية ، ونرى فى ذات الهمة الذكاء يشارك الفروسية نجد فى الظاهر بيبرس صفة الذكاء والحيلة والمهارة تغلب على الفروسية ، بينما نجد فى على الزيبق لواء البطولة يعقد لأصحاب المهارة والحيلة والذكاء . وبينما يبدأ فى الظاهر بيبرس ظهور الفداوية ، ويتغلب جمال الدين شيحة القصير صاحب الذكاء والحيلة والقدرة على القتال والمهارة فى استعمال أدوات الحرب ، نجد البطولة فى على الزيبق معقودة لعلى الزيبق ودليلة المحتالة وأحمد الدنف وحسن شومان وزينب النصابة بنت دليلة المحتالة من أصحاب المهارات والحيل ، مما يعلن أن البطولة قد أصبحت قريبة من الفرد العادى ساكن المدينة وحاراتها الذى يشق طريقه بذكائه لا بقوة ساعده .

من هذه الدلائل أيضا ، تكرار لشخصية تبدو أنها استهوت القاص ، وردت فى سيرة الظاهر بيبرس ، تلك هى شخصية (حبظلم بظاظة) وهو فى سيرة الظاهر

ابن على بن الأقواسى ، أخذ الظاهر وهو صبى ، رهنا على مال له عند النخاس الذى اشترى الظاهر بيبرس للملك الصالح . وكان حبظلم بظاظة هذا طفلا مشوها من حيث الخلقة والخلق ، ركب الظاهر بيبرس ببلاهته وشراهته وسوء خلقه . ويقف المؤلف ليصف هذا اللقاء بين محمود الذى هو الظاهر بيبرس بذكائه وقوته ، وهو فى موقف العبد ، وهذا السيد الأبله الشره حبظلم بظاظة مستغلا الأحداث التى تدور بينهما ، لابراز قسوة العبودية فى صورة واضحة من صورها التى تعكس عبث القـــدر بأقدار الناس [١] . ونجد حبظلم بظاظة بنفس الاســـم ونفس الصـــــورة والتكوين فى قصة عـــــلاء الدين أبى الشامات ، التى هى انعكاس لسيرة على الزيبق فى ألف ليلة وليلة .

فينزل والى بغداد الى السوق ليشترى جارية لابنه حبظلم بظاظة هذا ويلمح الفتى الأبله المدلل ، الجارية

---

(١) راجع فى استعارة القصاص الشعبيين المواقف من القصص التى تستهويهم ، الفصل العاشر من الكتاب الثانى فى(ألف ليلة وليلة) للدكتورة سهير القلماوى .

ياسمين معروضة فى السوق ، فيتعلق بها ، بينما يحصل عليها دونه علاء الدين أبو الشامات ، ويؤدى هذا الى سلسلة من المؤامرات تقوم بها أم حبظلم بظاظة تؤدى الى حكم الخليفة على علاء الدين بالاعدام ، ووقوع ياسمين فى يد حبظلم بظاظة ولا ينقذ علاء الدين من الموت الا حيلة أحمد الدنف وذكاؤه .

ونحن نفترض أن قصة علاء الدين أبى الشامات انعكاس لعلى الزيبق ، لمشابهة أحداثها لأحداث سيرة على الزيبق ، ولوحدة الأبطال فيهما ، ولمشابهة رحلة علاء الدين من مصر الى بغداد فى أحداثها للرحلة التى قام بها على الزيبق من مصر الى بغداد ، كما أن الجو الذى ترسمه القصتان واحد . وهذه القصة تشغل فى ألف ليلة وليلة ، عدة ليال ، تبدأ من الليلة ٢٨٦ حتى الليلة ٣١٣ . وليست هذه القصة هى الصدى الوحيد لسيرة على الزيبق فى ألف ليلة وليلة ، فهناك صدى آخر يبدو فى حكاية على شار مع زمرد الجارية التى تستمر من الليلة ٣٤٥ حتى الليلة ٣٦٤ ويلعب فيها أحمد الدنف ورجاله دورا هاما ، وكذلك تظهر آثار سيرة على الزيبق

فى الليلة ١٤٨ ، اذ تلعب زينب النصابة بنت دليلة المحتالة دورا هاما فى جزء من حكاية العاشق والمعشوق التى هى جزء من حكاية الملك عمر النعمان ، كما تظهر شخصية قريبة جدا من شخصية دليلة المحتالة فى نفس القصة هى العجوز المحتالة شواهى ذات الدواهى ، بينما تأتى قصة (أحمد الدنف وحسن شومان مع الدليلة المحتالة وبنتها زينب النصابة) لتشغل من الليالى من ٦٣٦ الى الليلة ٦٧٧ وتظهر فيها شخصية على الزيبق ، تلعب أحـد الأدوار الرئيسية فى القصة ، وتدور أحداثها كلها فى بغداد . وتوجد هذه القصة بنفسها منفصلة فى طبعة مستقلة تحت نفس الاسم وقد طبعت عام ١٣٠٢ هـ ، والقصة تبدأ بالمعارك بين أحمد الدنف ودليلة المحتالة ، ثم انتصار دليلة . ثم هزيمتها على يد على الزيبق ، ونحن نرجح أن هذه القصة ، سواء فى طبيعتها المستقلة أو فى ورودها ضمن ألف ليلة وليلة اختصار لعمل شعبى مستقل كبير ، تمثل هذه القصة ما تبقى منه وما حفظته لنا ألف ليلة وليلة مع ما حفظته من بقايا السير الشعبية الأخرى ، ففى ألف ليلة وليلة نقل كامل من قصة الصحصاح والملكة

ألوف الواردة فى أول ذات الهمة وذلك فى حكاية الملك النعمان وولده شركان ، لو أن ألف ليلة وليلة غيرت الأسماء الا أنها احتفظت بالطابع والأحداث وسمات الأبطال ، كما أننا نلمح آثارا لعنترة بن شداد فى الليلة ١٧٢ من قصة الملك روزمان واخوته (كان ما كان) و (نزهة الزمان) و (قضى وكان) فهى منقولة من قصة (الجوفران بن عنترة مع أخوته الغضنفر وعنيترة) ، وتكتفى ألف ليلة وليلة فى نقلها للأحداث من هذه السير باقتباس بعض المغامرات ، ونسبتها لأبطال آخرين ، ولعل دراسة متخصصة فى ألف ليلة وليلة تقوم على عقد المقارنات بين حكاياتها والسير الشعبية السابقة لها تستطيع أن تثبت أن ألف ليلة وليلة صدى شعبى للأعمال الأدبية الكبيرة التى سبقتها ، ويمكن عن طريق هذه الدراسة [1] التأكد من زمن كتابة ألف ليلة وليلة ،

---

(١) يجهد جوستاف جرونيبادم نفسه فى كتاب (حضارة الاسلام) فى اثبات بقايا يونانية ويهودية فى ألف ليلة وليلة ويركز فى استشهاده على رحلات السندباد بينما تجاهل الأصول العربية العريقة والتى تترك أثارها فى ألف ليلة وأهمها السير الشعبية بالذات .

وطبيعتها كتجميع لما تبقى فى أذهان العامة للسير الشعبية ، ويمكن أن تكون دليلا لنا فى فهم الكثير من السير وارتباطاتها بنفسية المتلقين ، واشارة الى ما لم يصل الينا من سير أخرى .

الا أن سيرة على الزيبق تبدأ من القاهرة ، فهى من حيث الحدث تبدأ فى النصف الثانى من حكاية الدليلة المحتالة الواردة فى ألف ليلة وليلة والمطبوعة على حدة ، وهى تبدأ بعد هزيمة أحمد الدنف ، فكأنها اكمال لعمل آخر سبقها ، ويدلنا عليه النصف الأول من حكاية دليلة المحتالة هذه ، الا أن هذه السيرة أكثر تفصيلا وأناة فى السرد ودقة فى التبرير الروائى للأحداث ، مما يقطع بأنها أصل مكتوب للبقايا الشعبية التى تبدو فى ألف ليلة وليلة .

واسمها سيرة على الزيبق المصرى بن حسن رأس الغول ، والطبعة التى بين أيدينا طبعت فى بيروت ، وتحكى قصة الصبى الصغير على بن حسن رأس الغول الذى هزم مع أحمد الدنف فى بغداد من دليلة المحتالة التى استطاعت بالخيل والمناصف والشجاعة أن تبز المقدم

أحمد الدنف مقدم درك بغداد ورجاله من الفرسان العياق أمثال شحادة أبو حطب وحسن شومان وحسن رأس الغول أبو بطل هذه السيرة ، فيهربون جميعا بأرواحهم الى الاسكندرية ما عدا حسن رأس الغول الذى ينزح الى القاهرة ، ويتزوج من فاطمة بنت الشيخ نور الدين قاضى الفيوم ، وكانت شجاعة معدودة بين الفرسان حتى ليهابها فرسان عصرها وشجعان أوانها ، الا أن الأيام لا تصفو له اذ يخشاه منذ اللحظة الأولى مقدم درك القاهرة ، المقدم صلاح الدين الكلبى ، الذى يتآمر عليه ويتمكن من قتله بحيلة غادرة ، وبعد موته بأيام تلد زوجته فاطمة ابنها على الذى يرث عن أبيه سعة الحيلة والمهارة والذكاء ، بينما يرث عن أمه الشجاعة الخارقة التى عرفت بها ، وما ان يصل الى سن السابعة حتى تبدأ سماته الموروثة فى البروز ، وتصبح مهمته التحايل على شيخ الكتاب والتفنن فى الهروب من الدرس ، جاعلا من شيخه مجالا لسخريته ، وهدفا لألاعيبه ومناصفه ، التى يفوق بها شقاوة كل الصبيان ، وتصل به هذه الشقاوة الى حد التسبب فى اجراء عملية

جراحية لشيخه تجعل منه سخرية لأولاد مصر ، فاذا ما آمنت أمه أنه لن يصلح فى الكتاب ، فأرسلته مع جده الى السوق ليجلس فى دكانه ويتأدب بأدبه ، ركب أهل السوق بشقاوته ، حتى ليقول الناس ان خان الخليلى قد رجمته الجن بالصواعق ، ويستطيع أن يهرب من الجلوس فى دكان جده ، لا باغلاق دكان جده كما فعل بالكتاب من قبل فحسب ، ولكن باغلاق السوق كله ، وتضطر أمه السيدة فاطمة ، أن تحاول ارساله مع عبدها سالم للدرس فى الجامع الأزهر على أحد شيوخه ، وما يلبث على الزيبق أن يركب الشيخ بدعاباته الثقيلة ، ولا ينتهى يومه معه على خير . ويتبع على الزيبق عبده سالم الى (الرميلة وقرة ميدان) [1] التى يقول عنها المؤلف فى ص ٢١ « وكانت تلك البقعة سهلة واسعة وهى أعجوبة من عجائب الزمان ، وفيها كانت تجتمع

(١) تظهر (الرميلة وقرة ميدان) أيضا فى سيرة الظاهر حيث يخرج اليها ليشهد الألعاب ، ويلتقى هناك بمحمود المصارع العجمى الذى باعه لرسول الصالح أيوب ، ويقتله فى صراع علنى تتم عليه مراهنات ، ويتحمس الناس للمتصارعين ويقبلون على مشاهدة صراعهم .

أرباب الشطارة والزلاقة . وكان يوجد هنـــاك جميع ألوان الملاعب . مثل لعب السيف والترس ، وضرب الرمح والدبوس ، والصراع وركوب الخيل والحرب ودواهى الشغربية والخداع » . وهناك يلتقى على الزيبق بمكانه الطبيعى حيث يحس فى نفسه الميل الى الدرس والتحصـــيل عـــلى أرباب هذه الفنون دون غيرهم ، ويستطيع باستعداده الموروث أن يبز أشطرهم وأحيلهم وأشجعهم ، ومن هناك من الرميلة وقرة ميدان ، تطلق عليه الصفة التى غلبت على لقبه ، فأصبح يعرف بها ، وهى صفة (الزيبق) اذ كان منافسوه وأقرانه مهمـــا أحكموا الحيل لا يستطيعون أن يوقعوه فيها ، بل يستطيع أن يتخلص منها مارقا من فخاخهم كالزيبق لا يستطيع أحد أن يحتفظ به بين أصابعه ، ومن هنا فى الحقيقة تبدأ قصة على الزيبق ، الذى يحاول أن يحصل عـــلى مركز صلاح الدين الكلبى مقدم درك مصر الذى حصل على منصبه بالعياقة والشطارة ، وتدور المعارك والمناصف والحيل بين الاثنين حتى لتضج منهما القاهرة ، وحين تكشف السيدة فاطمة أم على الزيبق هوية ابنها الحقيقية

اذ تضطر الى التدخل لانقاذه من براثن فرسان صلاح الدين الكلبى ، وتهزمهم بشجاعتها وقوتها ، تخبر ابنها بحقيقة نسبه ، وتوصيه بأن يسافر الى أحمد الدنف بالاسكندرية ليصبح من مشاديده وغلمانه كما كان أبوه حسن رأس الغول . وفى هذا اللقاء بين على الزيبق وأحمد الدنف يتم تكريس على الزيبق واحدا من المقدمين ، كما يعلم بثأره عند صلاح الدين الكلبى ، الذى قتل أباه . وتسلمه أمه سلاح أبيه وأدواته من أسلحة وأدوات للتنكر وسلالم وبنج ونفط ، ويبدأ على الزيبق بذلك مرحلة جديدة من مراحل حياته يخرج فيها من طور الصبيان والغلمان الى طور الفتيان أصحاب البأس ، والرجال ذوى السمعة المخيفة فى مضمار الفروسية واللصوصية . ويعجز صلاح الدين عن مقاومة على الزيبق الذى تصل به جرأته الى سرقة خزانة بيت المال من بيت السلطان ، ويقر صلاح الدين بعجزه ، وينادى سلطان مصر بالأمان لعلى الزيبق ليضمه الى رجاله الذين يحفظون الأمن ، ويطلب منه أن يثبت مهارته باحضار صندوق التواجيه من المدينة المرصودة ،

ويستطيع بعد مغامرات مثيرة أن يحصل على الصندوق . وتظل اختبارات الفداوية لعلى الزيبق حتى يثبت جدارته بمكانه ، فيتولى درك مصر ويبدأ فى رحلته الى بغداد ، وفى طريقه يقوم بمغامرات تجعله يتولى درك الشام أيضا ، ثم تبدأ مغامراته مع دليلة المحتالة فى بغداد التى تتغلب عليه فيها أكثر من مرة ، ثم يتغلب عليها هو آخر الأمر. ويتسلم درك بغداد أيضا ، ويعيد لأحمد الدنف ورجاله مكانتهم فى المدينة بعد أن كانوا قد فقدوها . الا أنه أثناء مغامراته مع دليلة المحتالة ، يقع فى حب ابنتها زينب النصابة ويطلب الزواج منها ، فتغالى دليلة فى طلب مهر ابنتها ، وترسله الى المهالك التى ينجو منها واحدة اثر الأخرى ، وتنتهى القصة بقتل دليلة وزواجه من زينب ، واعتزاله لدرك بغداد تاركا مكانه لابنه .

وقصة على الزيبق تتكرر فى الأحداث الفرعية أكثر من مرة ؛ تتكرر فى حكاية على بن أحمد الزيات ، ثم فى حكاية ابراهيم الأتاسى ، ثم فى حكاية على البسطى ، ثم فى حكاية عمر الخطاف ، وكلهم شبان مظلومون يركبهم عسف الولاة وطغيانهم ، ولا يجدون مجالا

لتحقيق العدالة ونيل حقوقهم ، الا بشق عصا الطاعة ، وارتكاب السرقات لتهـديد الأمن ، حتى يستطيعون اثبات حقهم حين تصـل خطورتهم الى حـد لا يمكن السكوت عليه ، الا أنهم لا يستطيعون التغلب على على الزيبق فيصبحون من أتباعه ، ويتولى هو احقاق حقوقهم ، واجراء العدالة معهم .

فسيرة على الزيبق اذن هى سيرة الثورة على النظام الفاسد ، وتقوم على التسلح بنفس سـلاح الخصم ، فالمهارة والشجاعة والاحتيال ليست وقفا على أصحاب السلطة من المماليك وحدهم ، وانما هى نهب لكل من يستطيع أن يمر فيها ويكرس نفسه لها . وسيرة عـلى الزيبق أيضا هى قصة هذا المجتمع الفاسد المتعفن عرضها المؤلف مستترا وراء هرون الرشيد وأحمد بن طولون ، والأحداث الطريفة الضاحكة ، التى تخفى وراءها مرارة واحساسا حادا بما يملأ المجتمع حوله من تعفن ، فهى اذن عمل أدبى ثورى يخفى حقيقة ثورته اخفاء روائيا بارعا ، ولكنه لا يستطيع أن يخفى على الدارس أنه

وثيقة اتهام فنية ، وصرخة احتجاج أخرجها ضمير الشعب المصرى ، ليصم فترة من أحلك فترات عمره .

وإذا كانت القضية الانسانية فى الظاهر بيبرس هى موقف الانسان من القدر فان القضية الانسانية فى على الزيبق هى موقف الانسان الفرد أمـام مجتمعه الذى يحس فيه أنه لا يملك شيئا وأن حقه الطبيعى ، بحكم كونه واحدا من أبناء هذا المجتمع ، مهضوم وضائع ، نتيجة لاختلال القيم واهتزاز المثل ، وتفسخ المجتمع . والقضية فى على الزيبق لا تحل بالتقوقع والاستسلام وانما هى تحل بالتصدى لعوامل الشر فى هذا المجتمع ، وهزيمتها بنفس الأسلحة التى يتسلح بها هذا المجتمع لتحطيم الفرد فيه .

والواقع أن على الزيبق يعتبر منفـذا لاحســاس الهزيمة عند الفرد المصرى العادى الذى تدور أمامــه مهازل تولى المماليك للسلطان واحدا اثر الآخر ، وكأنها لعبة وهو بعيد لا يشارك فيها . رغم أنها فى حقيقة الأمر تمس جوهر وجوده ، وتلعب بمقدراته ومستقبله ، وليس غريبا أن يكون أبطال السيرة جميعا من المصريين

تجمعهم سـمة أساسية هى سمة الاحساس بالظلم ، والخروج للأخذ بالثأر وتحقيق العدالة .

وسيرة على الزيبق هى السيرة الأولى التى يعقد لواء البطولة فيها لمصرى من أبناء الشعب وان كانت بذور هذه البطولة تبدأ فى الظاهر بيبرس فى شخصية عثمان ابن الحبلى ، الا أنها هناك تظهر على استحياء ، والى جوارها بطولات أخرى تفوقها أهمية ، لعل أخطـرها وأهمها هى الظاهر بيبرس نفسه ، البطل المملوكى . أما فى سيرة على الزيبق فالمؤلف حريص على أن يفرد مكان الصـدارة فى البطولة لأبطاله المصريين وعـلى رأسـهم على الزيبق نفسه . واذا كانت عـلى الزيبق من الناحيـة الفنيـة أقل فى المرتبـة عن غيرها من السـير الأخـرى من حيث ثقافة مؤلفهـا والمـامه بالتاريخ والأحداث التاريخية ، ومن حيث قوة الحبك فى الأحداث الروائية ، الا أنها أكثرها ارتبـاطا بروح المصرى القاهرى ابن البـلد وأشدها تعبيرا عن موقفه ومشاكله ، وأولها تعبيرا عن احساسه بذاته وكيانه ،

ولعل أكبر دليل على هذا هو بقاء أسماء أبطال السيرة دون تغيير فى الأعمال الشعبية الأخرى كألف ليلة وليلة ..

حاشية : (١)

١ - من الدراسات العربية حول هذه السيرة

دراسة يعدها الآن الدكتور بدر الديب . وسينشر الدكتور بدر نسخة جديدة من هذه السيرة عثر عليها مخطوطة فى واحدة من مكتبات المانيا .

٢ - من المحاولات لتقريب هذه السيرة وتقديمها تقديما معاصرا .

أ - محاولة للأستاذ يوسف الشارونى نشرت مسلسلة فى روزاليوسف .

ب - محاولة يعدها الآن الأستاذ عبد المنعم شميس .

ج - محاولة قدمتها دار المعارف لتقريب السيرة لمستوى الأطفال .

حاشية : (٢) كثر حديثنا فى هذا الفصل عن ألف ليلة وليلة ، ولهذا نحب أن نقدم لك فى هذه الحاشية الأعمال التى عرفتها المكتبة العربية المعاصرة عن هذا الأثر الهام :

١ - من الدراسات العربية حول ألف ليلة وليلة :

أ - ألف ليلة وليلة للدكتورة سهير القلماوى وهى

الرسالة التى نالت عليها درجة الدكتوراة، وتعتبر من أهم وأنضج الدراسات في أدبنـــا الشـــعبى ، وهى الى جوار دراساتها التفصيلية لألف ليلة تفتح أفاقا كثيرة تنير الطريق لدراسة باقى الآثار الأدبية الشعبية .

ب ـ سندباد قديم للدكتور حسين فوزى ، وهى دراسة فريدة فى بابها اذ تتبع رحلات السندباد على ضوء من مفاهيم الجغرافيا العربية والعلوم العربية القديمة، والدراسة تعتبر من الأعمال الرائدة .

ج ـ فصل فى كتاب (حضـــارة الاســـلام) لفون جرونيبادم وهو مترجم ، وفيه يعقد المؤلف دراسة مقارنة بين حكايات ألف ليلة وليلة والتراث الشعبى للحضـــارة اليونانية .

د ـ فصل فى كتاب (الأدب المقارن) للدكتور محمد غنيمى هلال تحت عنوان (البحث عن الحقيقة) .

هـ ـ فصل فى كتاب (قضايا الانسان فى الأدب المسرحى المعاصر) للدكتور عز الدين اسماعيل تحت عنوان (الانسان

و ـ فصل فى كتاب (قصصنا الشـــعبى) للدكتور

والمكان) .

فؤاد حسنين .

٢ ـ من الأعمال الأدبية المعاصرة التى استوحت مادتها من ألف ليلة وليلة .

أ ـ مسرحية (شهرزاد) للأستاذ توفيق الحكيم .
ب ـ مسرحية شعرية بعنوان (شهريار) للأستاذ عزيز أباظة .
ج ـ مسرحية (سر شهرزاد) للأستاذ على أحمد باكثير
د ـ أحلام شهرزاد للدكتور طه حسين .
هـ ـ المدينة المسحورة للأستاذ سيد قطب .
و ـ القصر المسحور للدكتور طه حسين والأستاذ توفيق الحكيم .

٣ ـ ومن محاولات تقديم ألف ليلة تقديما معاصرا .
أ ـ ألف ليلة للأستاذ عبد الرحمن الخميسى وقد نشرها مسلسلة ثم جمعها فى ثلاثة أجزاء .
ب ـ ألف ليلة (المهذبة) وقد أصدرتها دار المعارف.
جـ ـ ألف ليلة (المهذبة) وقد أصدرتها دار الهلال .
د ـ محاولة اذاعية للأستاذ طاهر أبو فاشا لم تطبع .

سيرة سيف بن ذي يزن

لعلم من الواضح أن أحفل العصور بالسير الشعبية هو عصر المماليك ، وقد نظرنا معا فى سيرتين هامتين من السير الشعبية التى ألفت فى هذا العصر الحى الملىء بالحركة والأحداث الداخلية والخارجية على السواء.. تناولنا سيرة الظاهر بيبرس التى عالجت الحروب الصليبية فى آخر معاركها مع شعب الأمة العربية وعرضت كفاح هذه الأمة فى مواجهة هذا الغزو الخارجى ، كما عرضت كفاح هذه الأمة فى مقاومة الفساد الداخلى .. وواضح أن هذه السيرة ألفت فى عصر المماليك لأنها تمجد بطلا مملوكيا من أبطالهم التاريخيين المعروفين هو الملك الظاهر بيبرس الذى ساهم تاريخيا فى الحروب الصليبية كما ساهم فى مؤامرات القصر وصراع المماليك على السلطة، كما ساهم تاريخيا فى حكم مصر متربعا على عرشها منفردا بالسلطة الفعلية فيها .. كما تناولنا سيرة على الزيبق التى

تعكس الجانب الآخر من الحياة فى المجتمع المملوكى جانب الشعب المغلوب على أمره ، المنعزل عن مجال السلطة الحقيقية فى بلاده ، العاجز أمام قسوة المماليك ووحشيتهم ومؤمراتهم التى لا تنتهى عن الحصول على حقه واثبات مكانه الطبيعى فى هذا المجتمع المضطرب الفاسد الذى تحكمه القوة واللصوصية وسعة الحيلة ، وواضح من لجوء المؤلف الى تغطية عمله بكثير من الأسماء الخيالية التى ترمز ولا تبين ، وبكثير من الأحداث القصصية التى تعرض ساخرة ولاتنقد واضحة ، أن كتابة السيرة كانت فى عهد سطوة حكم المماليك وتحكم سلطانهم . .

ويرجح كثير من الدارسين أن مجموعة كبيرة من قصص ألف ليلة وليلة كتبت فى هذا العهد لما تعكس من صور مجتمعية ومفاهيم حضارية تنطبق على الصورة المجتمعية التى عرفتها مصر فى عهد حكم المماليك[١] .. كما أن ورود اشارات الى السير الأخرى كسيرة عنترة بن شداد

---

(١) راجع (ألف ليلة وليلة) للدكتورة سهير القلماوى .

وسيرة ذات الهمة وسيرة الظاهر بيبرس وسيرة على الزيبق فى ألف ليلة وليلة ، دليل على تأخر القصص التى وردت فيها هذه الاشارات التى تكاد تصل الى حد النقل والاقتباس فى كثير من الأحيان على تأخر عصر كتابة هذه القصص عن عصر كتابة كل هذه السير .. وتقف اللغة المستعملة فى السرد دليلا آخر على انتهاء هذه القصص لعصر متأخر انحطت فيه الفصحى وبعدت عن مجال الحياة وأطلت فيه العامية برأسها تحاول أن تجد لها مكانا فى ميدان التعبير الأدبى (١) ..

وهناك عمل آخر لا يقل أهمية عن سيرتى الظاهر وعلى الزيبق ولا عن ألف ليلة وليلة نرجح أنه وليد هذا العصر،عصر المماليك ، وهو سيرة سيف بن ذى يزن التى

(٢) يقول الدكتور محمد كامل حسين فى كتابه (فى أدب مصر الفاطمية) : « ان فن السير كان له شأن كبير فى الحياة الفكرية لمصر الاسلامية ، فابن الداية كتب سيرة أحمد بن طولون وسيرة ابن أبى الجيش ، وابن زولاق كتب سيرة الاخشيد وسيرة ابنه وسيرة كافور وسيرة المعز لدين الله وسيرة العزيز » .

احتلت مكانا مرموقا بين السير الشعبية ، وحظيت بشهرة ضخمة فى مجالات التلقى الشعبى ..

وعلى الرغم من أن أحداث سيرة سيف بن ذى يزن تدور فى العصر الجاهلى ، وتقع أحداثها بين الجزيرة العربية والحبشة ووادى النيل فى عصر ما قبل الأديان السماوية الثلاثة ، اذ هى حرب بين عبدة النجوم من الأحباش ، والمؤمنين بالله على دين الخليل ابراهيم من العرب .. على الرغم من هذا فهناك من واقع السيرة وأحداثها ما يشير بأنها انعكاس روائى لأحداث وقعت فعلا فى العصر المملوكى .. ذلك أن أحداث السيرة حرب حقيقية بين الأحباش والعرب يدخل فيها عنصر التعصب الدينى، فالاحباش يدافعون عن عبادةالنجم ؛ بينما يدافع العرب عن عبادة الله . ويحس الأحباش أن انتصار سيف ابن ذى يزن هو هزيمة لدينهم ، وقضاء على عبادتهم فيتصدى له الى جوار الجيوش كهنة المعابد مثل سقرديوس وسقرديون وهما يمثلان التشبث بزحل النجم المعبود عند الأحباش . والعرب والأحباش عرفوا فيما بينهم حروبا كثيرة اشتبك فيها الفريقان فى مراحل كثيرة

من تاريخهم وخاصة بين بلاد الحبشة وبلاد اليمن ، اذ اعتبر اليمنيون الحبشة نقطة ارتكاز هامة للسيطرة على قارة افريقية كلها ، والتحكم فى مصادر ثرواتها ، اذ هى مصدر للذهب والعاج والعبيد . بينما اعتبر الأحباش بلاد اليمن نقطة ارتكازهامة بالنسبة لهم فى طريق القوافل المحملة بالتجارة بين الشرق والغرب . ولهذا فقد حمل لنا التاريخ أنباء الكثير من المعارك بين هاتين الدولتين المتجاورتين اللتين لا يفصل بينهما سوى البحر . وقد دخل الدين عاملا هاما يلعب دوره فى الحروب بين الدولتين[١] .

ومنذ القرن الأول قبل الميلاد نجد الحبشة تتدخل فى خلاف بين ملوك اليمن فتنصر احدى الطائفتين المتنازعتين ضد الأخرى ، وتنتهى هذه الحرب باحتفاظ الجيش الحبشى الذى اشترك فى المعركة ، بمدينة (سحرت) كقاعدة لهم فى بلاد اليمن . وفى عام ٢٨١ ميلادية نجد ملك اليمن (شمريهرعش) يهاجم هذا المركز

---

(١) راجع (التاريخ العربى القديم) لنيلسن وآخرين ترجمة الدكتور فؤاد حسنين .

الحبشى فى داخل بلاده مما يؤدى الى تدخل بلاد الحبشة نفسها فى المعركة [1] . وهذه الحروب الموغلة فى القدم تأخذ طابعا دينيا حين تعتنق الحبشة المسيحية بينما تعتنق اليمن الديانة اليهودية. وتتدخل الدولتان الكبيرتان الفرس والروم فى هذه الحرب الدائرة بين الحبشة والعرب ، فينصر الروم اخوانهم فى الدين من الأحباش بينما يناصر الفرس اليهود اليمنيين ليحدوا من نفوذ الدولة الرومانية فى هذه المنطقة من العالم بألوان من الوحشية والعنف عمادها الظاهرى التعصب الدينى ، بينما أسبابها الحقيقية ذلك الصراع العنيف على مناطق النفوذ بين دولتى الفرس والروم ، الى أن يستقر الأمر للفرس الذين يؤيدون العناصر الوطنية فى بلاد اليمن فيطردون الأحباش نهائيا من بلاد اليمن على يد الملك اليمنى الحميرى سيف بن ذى يزن فى رواية ابن اسحاق أو معدى كرب بن ذى يزن فى رواية ابن الكلبى [2] .

---

(١) راجع (بين الحبشة والعرب) للدكتور عبد المجيد عابدين .

(٢) راجع الطبرى ج ١ ص ٩٤٥ .

وتنتهى صفحة الاضطرابات كلها بدخول الاسلام الى بلاد اليمن .

الا آن العداوة التقليدية بين الأحباش واليمنيين العرب تتحول فى أرض الحبشة نفسها الى عداوة بينهم وبين المسلمين من أبناء الحبشة ومن سكان الولاية الاسلامية التى تتاخمهم وهى ولاية (الطراز) . وتعود كتب التاريخ لتحدثنا عن هذه العداوة حين تصل الحروب الصليبية الى ذروتها فتجد انعكاسها فيما يدور بين المسلمين والأحباش فى افريقية [١] ، ففى أوائل القرن الثالث عشر لجأ عدد كبير من الأقباط الى ملك الحبشة (لا ليبلا) على اثر موقف السلطان الكامل ناصر الدين الأيوبى اثر حصار الصليبيين لمدينة دمياط . وفى عهد الظاهر بيبرس يهاجم ملك الأحباش جيرانه من عرب الطراز ويرسل له الظاهر بيبرس الرسل وتدور بين الملكين المكاتبات التى تبدو فيها نغمة المصالحة من جانب الأحباش الا أن هذه اللهجة تتغير مع الزمن ، وتشتد

(١) راجع (الظاهر بيبرس) للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور .

العداوة بين الحبشة والمسلمين حتى تبدأ سلسلة من المعارك الدامية فى القرن الرابع عشر تظل ثلاثة قرون قابلها المسلمون فى مصر بمعاملة الأقباط بالمثل [١] وينقل لنا الدكتور عبد المجيد عابدين عن رسالة للأستاذ حامد عمار خطابا أرسله ملك الأحباش (عمداصيون) سنة ١٣٢٥ م . — ٧٢٦ هـ . يلتمس من السلطان المملوكى الاحسان الى الأقباط وفتح كنائسهم ، وذكروا عنه أنه قال ان نيل مصر الذى به قوام أمرها وصلاح أحوال ساكنيها مجراه من بلادى ، وأنا أسده . فضحك السلطان من كلام رسل ملك الحبشة واستثقل عقلهم وعوملوا بغاية الاهانة . فاذا ما كان على عرش الأحباش الملك (نواى كرستوس سيف أرعد) يصبح الصدام بين مصر والحبشة علنيا سافرا كما يقوم سيف أرعد بمحاربة ملوك الطراز الاسلامى حربا دامية مستمرة . وبعد سيف أرعد يستمر أولاده فى نفس سياسته حتى يصل التوتر الى قمته فى القرن الخامس عشر .

---

(١) راجع (بين الحبشة والعرب) للدكتور عبد المجيد عابدين .

فالعصر المملوكى اذن شهد تجدد العداوة التقليدية بين الحبشة والعرب وان كان قد أخذ فى هذه المرة صبغة دينية كاملة ، وعلى الرغم من أن كاتب سيرة سيف ابن ذى يزن قد أجرى أحداث قصته فى زمان بعيد جدا يسبق كما قلنا ظهور الأديان الثلاثة ، الا أنه من الواضح أنها انعكاس للأحداث التاريخية التى جرت فى عصر المماليك بين مصر والحبشة والتى سفر فيها العداء ووصل الأمر الى الاشتباك المسلح . وعلى الرغم من أن الكاتب يجرى أحداثه بين بلاد الأحباش وبلاد اليمن فى عهد سيف بن ذى يزن الذى يعقد له لواء البطولة فى هذه السيرة الا أنه يضع أمامه الملك سيف أرعد ليمثل الجانب الحبشى . وقد ذكرنا أن سيف أرعد اسم واحد من أهم الملوك الأحباش الذين اضطهدوا مسلمى الطراز اضطهادا حقيقيا والذين جابهوا سلاطين مصر بالعداء السافر ، وقد تولى ملك الحبشة بين عامى (١٣٤٤ — ١٢٧٢ م) . فالسيرة اذن موجهة ضد سيف أرعد تحاول أن تنال منه لتنال من الأحباش كلهم فيه وما سيف ابن ذى يزن فى هذه الحالة الا رمز عربى لا يشير الى زمن

أحداث السيرة وانما يشير الى أحد ملوك حمير وآخرهم وهو الذى استطاع بالاستعانة بالفرس أن يقضى على نفوذ الأحباش نهائيا فى بلاد اليمن (١) . ويؤكد هذا أن عصر سيف بن ذى يزن عاصر حروبا بين الديانتين المسيحية واليهودية ولم يكن الأحباش فيه يدينون بعبادة النجوم وانما كانوا مسيحيين تؤيدهم الدولة الرومانية المسيحية ويمثلون رأس الحربة للديانة المسيحية والنفوذ الرومانى فى قلب القارة الأفريقية والطريق الى الشرق الأقصى (٢) .

وأحداث السرة تقول ان مهمة سيف بن ذى يزن الأولى هى احضار كتاب النيل الذى هو فى بلاد الأحباش وتخيل الكاتب أنهم باستيلائهم على هذا الكتاب قد حجزوا النيل عن مصر ، فاذا ما جاء سيف بن ذى يزن واستولى على هذا الكتاب أجرى ماء النيل وأنشأ مصر

---

(١) راجع الطبرى ج ١ ص ٩٥٠ وما بعدها . وكذلك التيجان لوهب بن منبه ..

(٢) راجع (بين الحبشة والعرب) للدكتور عبد المجيد عابدين .

التى سماها باسم ابنه البكر مصر الذى أصبح ملكا عليها من قبله . وهــذه الوقفــة تذكرنا بالخطاب الذى نقله الأستاذ حامد عمار عن النويرى والذى قيــل ان ملك الأحباش (عمد صيون) قد أرسله فى عام ١٣٢٥ ميلادية الى سلطان مصر المملوكى مهددا فيه بسد مجرى النيل كاجراء اتنقــامى لتدمير مصر . فكأن أحداث السيرة رد على هذه الرسالة يقرر أن النيل قد أصبح من حق مصر بحكم الفتح اذ استولى سيف بن ذى يزن على كتــابه بحد السيف .

واذا ما لاحظنــا أن عصر المماليك كان عصر تجمع للقوى العربية فى مواجهة قوىأوربا المتجمعة تحت الراية الصليبية أحسسنا أهميــة ما لجأ اليه كاتب سيرة سيف ابن ذى يزن من رمز حين جعل لبطله ولدين أحدهما هو مصر الذى يحكم مصر بعد جريان ماء النيل والثانى هو دمر الذى يملك الشام ويعمرها بعد أن يجرى سيف بن ذى يزن نهر بردى[١] . وكأنما أراد كاتب السيرة المصرى

(٢) راجع مقدمة (سيف بن ذى يزن – صياغة جديدة) لفاروق خورشيد .

أن يضع أمام الشعب العربى كله صــورة رمزية لمعنى وحدته وأصالتها ،وكأنما أراد أن يجعل من وحدة الدم سندا للوحدة السياسية ووحدة الكفاح . أى أن كاتب هذه السيرة الذى نرجح أنه عاش حوالى القرن الخامس عشر الميلادى أراد أن يرسم صورة للوحدة العربيــة متمثلة فى ذلك البطل العربى اليمنى الذى يحارب للمسلمين حربا دينية حقيقية ، تريد أن تثبت معالم الاسلام دين الجزيرة العربية القديم ، دين الخليل ابراهيم . ثم ينجب ولدين أحدهما مصر والثانى دمر ، أحدهما يتولى حكم مصر وانشائها والثانى يتولى حكم الشام وانشائها وهما أخوان من أب واحد يواجهان مصيرا واحدا ويربطهمــا تاريخ مشترك ليقودا كفاحا مشتركا ضد العدوان الخارجى على أرضهما .

وهذه الفكرة التى تحمل دفاعا عن معنى ترابط أجزاء العالم العربى تحمل فى نفس الوقت شــاهدا على عصر كتابة السيرة وهو العصر الذى اشتدت فيه الحاجة الى معانى الوحدة والترابط ضد الغزو الصليبى وهو العصر المملوكى .

فسيرة سيف بن ذى يزن اذن هى واحدة من السير التى كانت وليدة عصر المماليك شأنها فى ذلك شأن سيرة الظاهر وسيرة على الزيبق وبعض قصص من ألف ليلة وليلة . الا أنها تختلف عن باقى الأعمال فى عدم تناولها لحقبة تاريخية واضحة وفى لجوئها الى التاريخ القديم كمسرح لأحداثها ، وهى حتى فى هذا اللجوء لاتستطيع أن تحدد عصرا واضحا تقع فيه أحداثها وانما الأمر أمر حرب تاريخية بين الحبش والعرب تقوم على أســاس دينى مرة وتقوم على أساس عنصرى مرة أخرى ، فهو ان كان واضحا فى اشارته الى الحروب بين عبدة النجوم من الأحباش يقودهم سيف أرعد وبين عبدة الله يقودهم سيف بن ذى يزن الا أننا نلمح مشكلة عنصرية خطيرة تدور حولها أحداث السيرة اذ تحكى سيرة سيف بن ذى يزن بداية مشكلةالتفرقة العنصرية بشكل أسطورى طريف ، ذلك أنها تقول ان نبى الله (نوح) عليه السلام كان ينام ذات يوم وقد جلس ابنــاه سام وحام تحت قدميه ، فهبت الريح رافعة ثوب نوح لتظهر عورتــه لولديه . أما سام فيطرق بوجهه خجلا وحياء ويحجب

عينيه بيديه وأما حام فيغرق فى ضحك متصل . ويستيقظ نوح عليه السلام فيغضب من حام ويدعو عليه قائلا : سود الله وجهك وجعل أبناءك وذريتك عبيدا لأبناء أخيك سام . وتسير القصة بعد ايراد هذه الأسطورة فتجعل من سيف بن ذى يزن — وهو من نسل سام — منفذا لدعوة نوح عليه السلام فى أبناء حام . وتحكى السيرة فى مغامرات مثيرة قصة حصول الملك سيف على الأدوات التى يخلفها الملك سام بن نوح مرصودة باسم الملك سيف بن ذى يزن ليتمكن بواسطتها من تحقيق دعوة الملك سام بن نوح وهى اللوح المرصود الذى يخدمه أحد ملوك الجان وهو عيروض والذى يستطيع الملك سيف بواسطته أن ينتقل من مكان الى مكان معتليا ظهره فوق السحاب ، كما يستطيع بواسطته أيضا أن ينجو من المآزق وأن يتغلب على أعدائه ، وكذلك سيف الملك سام بن نوح الذى يحميه من الارصاد والسحر والذى يحارب به الانس والجن على السواء .. ويتنبأ سقوديون وسقرديوس كاهنا الحبشة حين يشاهدان سيف بن ذى يزن وهو طفل بانتهاء دولة الأحباش وانتهاء عبادة زحل

وبداية استعباد البيض للسود ، لو أتيحت لهذا الطفل الحياة ومكن له من الزواج من شامة بنت الملك أفراح ، اذ يجدان فى الطفلين الصغيرين علامتين تنذران بتحقيق النبوءة القديمة وهى وجود شامة على خد كل منهما لو اقترنتا لكان هذا هو الايذان ببدء أفول نجم الأحباش وعبودية السود من أولاد حام للبيض من أولاد سام ويحاول الكاهنان كما يحاول الملك سيف أرعد منع تحقيق هذه العلامة ، الا أن قضاء الله ينفذ ولا يستطيع أن يمنعه جهد الأحباش .

فالأمر فى سيرة سيف بن ذى يزن هو أمر موقف من العلاقة بين الأحباش والعرب يقوم مرة على أساس التعصب الدينى ، ويقوم مرة أخرى على أساس التعصب العنصرى . فالتحديد الزمنى لفترة وقوع الأحداث الروائية ، لا يهم القاص فى شىء وانما الذى يهمه هو النيل من الأحباش الذين تدخل أمته معهم فى حرب قاسية ، ويقاسى اخوته فى الدين فى بلادهم وما حولها اضطهادا وحشيا يثير حفيظته وغضبه ، ويمثلون خطرا دائما على حدوده وأرضه حتى ليصل الأمر الى

أن يغير الجيش الحبشى على أسوان نفسها فى عام ١٣٨١ م — ٧٧٣ هـ . كما يصل الأمر الى حد التهديد بقطع ماء النيل عن بلاده كما فعل الملك الحبشى (عمد اصيون) [١] : ونحن نرجح اذن أن سيرة سيف بن ذى يزن كتبها مؤلفها كعملية تعويض فنى عما يعانيه الشعب المصرى المسلم من قلق واضطراب نتيجة للتهديد الحبشى المسيحى الدائم لأمنه وسلامته — فالسيرة فى هذه الحالة رد فعل روائى فنى لما يعانيه الشعب الاسلامى فى الحبشة نفسها وفى ولاية الطراز الاسلامية من اضطهاد دينى من ملوك الأحباش ولما يحس به المصريون من تهديد دائم لحدودهم .

وقد جعل المؤلف من الملك الحبشى سيف أرعد [٢] ممثلا للعدوان الحبشى تمثيلا كاملا وكان لابد من البحث عن بطل عربى يقوم بتمثيل الشعب العربى فى المعركة الروائية الدائرة بين الشعبين وينتصر للعرب

---

(١) راجع (بين الحبشة والعرب ، للدكتور عبد المجيد عابدين .

(٢) راجع (قصصنا الشعبى) للدكتور فؤاد حسنين .

على الأحباش . وقد اختار القاص سيف بن ذى يزن لهذه المهمة . وأسباب هذا الاختيار واضحة ، فقد بحث القاص عن شخصية عربية قامت بدور تاريخى معروف فى حرب الأحباش ليدور حوله بحوادث السيرة ، وقد استطاع أن يجد هذه الشخصية المطلوبة فى آخر ملوك حمير التاريخيين سيف بن ذى يزن .

وقبل أن يولد سيف بن ذى يزن كان الأحباش قد استطاعوا أن يستولوا على ملك اليمن منذ حوالى عام ٥٢٣ ميلادية وذلك بمساعدة قياصرة الروم وفى حملة شبه صليبية ، اذ تذكر كتب التاريخ أن ذا نواس ملك اليمن اعتنق مع شعبه دين اليهودية ، وأخذ يحمل باقى أهالى اليمن على هذا الدين ، وكانت النصرانية قد انتشرت فى نجران ، فأبى أهل نجران أن يغيروا دينهم، فحفر لهم أخدودا وملأه نارا وأحرق فيه جمعا غفيرا منهم وقتل بالسيف قوما آخرين [١] . وكانت هذه فرصة ملك الحبشة المسيحى الذى يطمع فى الاستيلاء على اليمن نهائيا ، فأرسل بالاشتراك مع قيصر الروم حملة على

(١) راجع (السيرة النبوية لابن اسحق) لابن هشام .

ذى نواس اليهـودى للانتقـام لأهـل نجران وقتلوه واستولوا على اليمن وأقاموا عليها ولاة من عندهم .

الا أن اليمنيين لم يستسـلموا لهذا الاسـتعمار الحبشى الرومى المشترك ، ولم يكفوا عن مقاومة الأحباش الغزاة طوال حكم غازيهم أبرهة وابنه يكسوم .

ويقول الدكتور عبد المجيد عابدين[1] : « وكان سيف ابن ذى يزن ممن لعبوا دورا هاما فى هذه الآونة ، وهو رجل من ازواء حمير من أسرة عريقة فى اليمن سمعنا عن بعض أفرادها منذ عهد ذى نواس وأبرهة ، وكان للأسرة اتجاه سياسى واحد هو التمسك باستقلال اليمن وانفصالها عن السلطان الأجنبى » . ويروى الطبرى فى الجزء الأول من تاريخه قصة سيف بن ذى يزن وكيف خرج الى ملك الروم يطلب منه العون لتحرير بلاده فلم يجد عنده ما يحب ووجده يحامى على الحبشـة لموافقتهم اياه على الدين . فلجأ الى كسرى وأقنعه ، فأرسل معـه قوة من الجيش

---

(١) راجع (بين الحبشة والعرب) للدكتور عبد المجيد عابدين .

تمكنت من هزيمة الأحباش واخراجهم من بلاد اليمن وتمليك سيف بن ذى يزن على اليمن .

فاختيار القاص العربى لشخصية سيف بن ذى يزن يقوم على ما عرف فى التاريخ من دور لهذا الملك فى هزيمة الأحباش ، ورغم أن الملك سيف كان يعيش فى القرن السادس الا أن خيال صاحب السيرة لم يجد غضاضة فى الاستعانة به لتحقيق هدفه الروائى ، وخلق بطولة عربية تهزم الأحباش وتستند على سند من التاريخ الثابت المعروف . وقد راعى المؤلف نوعا من المطابقة بين شخصية بطله الروائى وبين الشخصية التاريخية لسيف بن ذى يزن فهو يحكى لنا أن بطله قد تربى فى بلاط أحد الملوك التابعين لملك الأحباش وهو الملك أفراح وهذا ما ترويه الروايةالعربية عن الشخصيةالتاريخية سيف بن ذى يزن. اذ تقول الرواية العربية ان ذا يزن كان يسمى أبا مرة الفياض ، وكان أحد أشراف اليمن فى عهد أبرهة الأشرم وكانت تحته ريحانه ابنة ذى جدن فولدت له غلاما ، وكانت ذات جمال فانتزعها الأشرم من أبى مرة وتزوجها وولدت له غلاما سماه مسروقا ، ونشأ ابن ذى يزن مع

أمه ريحانة فى حجر أبرهة ، وعرف الفتى بعد حين أنه ليس ابنا لأبرهة الذى مات هو وابنه يكسوم فخرج ثائرا على سلطان الأحباش على بلاده ، وتجمع حوله الوطنيون من اليمنيين ، ثم استعان بجيوش كسرى لمقاومة أخيه مسروق حتى يتمكن قائد الفرس (وهرز) من قتل مسروق ونفى الحبشة عن اليمن . وكتب وهرز الى كسرى بذلك . ويقول الطبرى (ص ٩٥٠) من الجزء الأول « فكتب اليه كسرى أن يملك سيف بن ذى يزن على اليمن وأرضها . وفرض كسرى على سيف جزية وخراجا يؤديه اليه فى كل عام معلوم ، وكتب الى وهرز أن ينصرف اليه » . وهذه القصة التاريخية استهوت صاحب السيرة لما فيها من أحداث درامية فاعتمد عليها فى رسم فترة طفولة الملك سيف وتعمد ان يجعل نشأته وصباه فى بيت أحد أعدائه وهو الملك أفراح أحد أتباع الملك سيف أرعد ، ويخرج من قصر الملك أفراح ليقود المعارك ضد الأحباش جميعا . كما يستهويه موقف أم سيف بن ذى يزن التى يقول التاريخ عنها انها فى نفس الوقت أم الملك مسروق ملك الأحباش التى أنجبته بعد أن فصلها ملك

الحبش عن زوجها واستأثر بها لنفسه لجمالها . أما فى السيرة فيرسم المؤلف صورة قمرية أم الملك سيف بطريقة منفرة اذ يجعلها مصدر كل شر ومنبعا لكل مصيبة يقع فيها ابنها سيف كما يجعلها دسيسة على أبيه ذى يزن من ملك الأحباش لقتله . والمؤلف فى هذه الحالة يحاول أن يخلق ملاءمة موضوعية بين أحداث السيرة وبين الأحداث التاريخية التى حملتها كتب التاريخ . والواقع أنه على ضوء التاريخ وحده يمكننا أن تفسر هذا الموقف العدوانى الغريب الذى يقفه المؤلف من أم بطله بحيث يرسمها بصورة مشوهة منفرة لا تليق بأم ، ولكن التاريخ يقول انها أم عدوه أيضا ، وربما حملها المؤلف وزر تركها لزوجها ذى يزن لتعيش فى أحضان أبرهة .

ومحاولة الملاءمة الموضوعية لا تقتصر على هذه الأحداث فقط ، وانما هى تمتد الى محاولة رسم جو بلاد الحبشة كما يمكن أن يتخيلها المؤلف ، مليئة بالسحر والكهانة ، غنية بالمردة والشياطين ، عامرة بالغيلان والسحرة .

وكذلك تظهر هذه المحاولة للملاءمة الموضوعية فى

الاستعانة بما أوردته كتب التاريخ وكتب الأساطير عن بعض ملوك اليمن الحميريين واستعارة أحداثهم لسيف ابن ذى يزن[1] ، ويبدو هذا فى المشابهة بين حروب سيف ابن ذى يزن فى السيرة وحروب (شمريهرعش) ضد الأحباش التى وردت فى كتاب التيجان لوهب بن منبه، وهو نفس الملك الذى تذكر كتب التاريخ أنه قام بعده حروب لتوحيد بلاد اليمن حتى تمتد الحروب من نجران حتى المحيط الهندى فيستولى على حضرموت ويخضع (سحر) التى كانت نقطة ارتكاز للحكم الحبشى فى بلاده. ومن خلال هذا الاطار الذى يحاول فيه الكاتب الملاءمة الموضعية بين قصته وشخصيته بطلبه سيف بن ذى يزن تتحرك القصة لترسم صورة لبطولة عربية فتية توحد الجزيرة العربية وتهزم الأحباش وتنشر الدين العربى ، دين الخليل ابراهيم وتنشىء مصر والشام وتحقق دعوة سام بن نوح .

فسيرة سيف بن ذى يزن محاولة روائية تعكس

---

(١) راجع (فى الرواية العربية • عصر التجميع) لفاروق خورشيد •

موقف الحبشة من الحرب الصليبية ومشاركتها مسيحيى أوربا فى الهجوم على الدولة الاسلامية ، كما تعكس موقف الأمة العربية الموحدة ضد الغزو الخارجى ، ودفاعا عن الدين ، وحفاظا على حرية الدين ، وحفاظا على حرية الوطن ، واستقلاله .

وهى لا تعالج الموضوع معالجة مباشرة كسيرة الظاهر أو سيرة ذات الهمة مثلا ، وانما هى تعالجه علاجا تاريخيا يبعد عن الواقع المعاش وان كان يرمز اليه بواقع آخر تستمده من بطل التاريخ ، ويشير فى كل رموزه الى الواقع المعاش ، ويفضحه وجود اسم مباشر من أسماء أبطال السيرة هو اسم بطل معاصر لكتابتها هو الملك سيف أرعد وعلى هذا فربما تكون سيرة سيف بن ذى يزن من أدق السير من حيث المعالجة الفنية ، وهى فى الواقع من أخصبها خيالا وأكثرها استعانة بالخيال الحر الجامح الذى يشدك الى أحداث طريفة مثيرة لا توحى اليك بأنها تتحدث عن تاريخ تعرفه ، وهى فى نفس الوقت وبطريق غير مباشر تعالج أحداثا تاريخية معاشة حقيقية .

وان كان هناك من الدارسين والكتاب من يغمطون

الخيال العربى حقه[١] وينعتونه بالعجز والقصور فان سيرة سيف بن ذى يزن وثيقة أدبية باقية تشجب هذا الموقف وتقدم بوضوح وجمال صورا لما يمكن أن يصل اليه الخيال العربى الخصب من قدرة على الخلق والابتكار، ومن براعة فى رسم المواقف الحية المليئة بالرموز والتى ترسم فى دقة موقف الانسان المتطلع الى المعرفة أثناء معركة حياته الطويلة فى سبيل الحصول عليها .

فاذا كان الهدف الموضوعى من السيرة هو رسم موقف العرب من الأحباش خلال الحرب الصليبية فان الهدف الانسانى من هذه السيرة هو رسم صورة هذا الانسان القلق الباحث عن المعرفة أبدا ، المتعرض لكل أسباب الهلاك فى سبيل ارضاء أهم غرائزه وأقواها وأكثرها دلالة على انسانيته أعنى غريزة الفضول وحب الاستطلاع أو غريزة المعرفة .

وحين يلتقى سيف بن ذى يزن بأخميم الطالب الذى يتوارث عن آبائه الحفاظ على كنوز الملك سام لتسليمها الى الملك سيف بن ذى يزن حين يأتى الأوان يقوده

(١) راجع فجر الاسلام للأستاذ أحمد أمين .

اخميم الى عامود منصوب على جبل يواجهه عامود آخر على جبل آخر يفصل بينهما بحر عجاج ويخبره أنه ان كان صاحب الرصد الموعود فسيظهر له فى هذا العامود درجات تصعد به الى أعلاه حيث يجد مكانا لقدميه منحوتا فى الصخر ولا ينطبق نحته وحجمه الا على قدر قدميه هو ، فاذا ما وقف فوق العامود قفز عبر النهر فاذا هو فوق العامود الثانى دون أن يسقط فى البحر ودون اعتبار للمسافة الكبيرة التى يفصل فيها البحر بين العامودين .

وحين يصل سيف الى الضفة الأخرى وينـــزل من فوق العامود الآخر على الدرجات التى تظهر له ، يلقاه أخميم الطالب مرة أخرى ليخبره بالمطلوب منه ، وهو أن يدخل فى القصر المنحوت فى الجبل ، ويقصد مباشرة دون أن يلتفت يمينا أو يسارا الى حيث يرقد الملك سام فى تابوته فيقرأ حسبه ونسبه فيحرك الملك يده ، فاذا ما فعل هــذا رأى لوحا من الذهب الأحمر وله سلسلة من الفضة فى رقبة الملك سام ، فيفك الملك سيف اللوح ويخرج به دون أن يلتفت حوله . ففعل الملك ســيف ما أمره به اخميم الطالب ، ويعود الملك ســيف باللوح الى أخميم وهو

مدهوش من الميت الذى يحرك يده ، فيطلب منه أخميم أن يعود مرة أخرى الى حيث الملك سام ليستأذنه فى الحصول على سيفه ، ويخبره أنه اذا رأى الملك يحرك يده أخذ السيف دون أن يخشى شيئا ، ولكن عليه آن يعود به خارجا دون أن يلتفت حوله أو ينظر الى شيء سوى طريق الخروج . ويعود الملك سيف الى تابوت الملك سام ويدهش من نفسه وهو يخاطب الميت بصوت عال مستأذنا اياه فى أخذ السيف ، وتزداد دهشته حين يجيبه الملك سام بتحريك يده ، فيأخذ السيف المرصود ويتجه خارجا . ولكن فضوله الانسانى يتغلب على كل شيء آخر ، وتبرز غريزة المعرفة لتستولى على لبه وتنسيه سلامته وأمنه ، فيعود الى تابوت الملك ويرفع اللثام عن وجهه ليعرف أحى هو أم ميت . وهنا يرتج القصر ويهتز المكان ، وسرعان ما يجد سيف نفسه وقد أصبح خارج القصر والباب مغلق واخميم يلومه ويقول له ان ما فعله اثم كبير سيدفع ثمنه غاليا وانه لا قدرة له على مساعدته ويتركه وسط الجزيرة ، فوق الجبل وحوله البحر ويختفى . وتبدأ فترة من العناء الشديد والمعاناة القاسية يدفع فيها

سيف ثمنا رهيبا لفضوله الانسانى ورغبته فى المعرفة ، وحين يشتد به الجوع والعطش ويتأكد أنه لا منفذ من هذا المكان المنعزل الذى رمته فيه المقادير ،يصعد فوق العامود ويقذف بنفسه . فيسقط فى وسط البحر يعالج أمواجه القاسية الرهيبة وكلما استطاع بما يبذل من جهد كبير أن يصل الى حافة الجبل الآخر حتى لتلمس يـده جانبه الأملس ، بشيرا بالنجاة ، تمتصه الأمواج لتعيـده فى لجتها بعيدا عن شاطىء النجاة ، ويتكرر هذا المشـهد أكثر من مرة ثم اذ بدوامة تلف الملك سيف وقد تحطمت قواه فاستسلم لها لتقذف به الى فوهة نفق تحت الجبل . ويبذل سيف جهد اليائسين للابتعاد عن هذه الفوهة التى تريد أن تبتلعه ولكنه سرعان ما يجد نفسـه يتخبط فى ظلمات مخيفة وسقف النفق يضغطه الى الماء الذى يندفع به فى قلب النفق المظلم أسفل الجبل . وبعد جهد مرير يغمى على الملك سيف ،وحين يفيق يجد نفسه خارج النفق من الناحية الأخرى وقد أشرف ضوء النهار كأنما ولد من جديد . وهذا النفق المظلم الرهيب الـذى امتص الملك سيف فى أعماقه كأنما يرمز به الكاتب الى الموت الذى

هو ثمن من الأثمان الرهيبة التى يدفعها الانســـان فى سبيل المعرفة .

وليست هذه هى الحادثة الوحيدة التى يرسم فيهـا المؤلف موقف الانسان المتطلع الى المعرفـة وحيرته فى سبيل الحصول عليها ، فحين يمر الملك سيف تحمله أخته عاقصـة فوق بستان ملفت يصر على أن يعرف سر هذا البستان ، ورغم تحذيرات عاقصة ينزل سيف الى البستان ويدخله ، وهناك يلتقى بالملكة منية النفوس التى تطير بثوب الريش ويقع فى حبهـا المهلك الذى يؤدى به الى الكثير من المغامرات التى تقرب به من الموت أكثر من مرة ثمنا لفضوله وتطلعه الى المعرفة .

وتتكرر هذه الصور كثيرا جدا ويقف عندها المؤلف وقفات متعمدة الا أنه يغطيها برموزه القصصية التى ترسم لنا صورة الانسان الباحث عن المعرفة المتطلع اليها المنتصر آخر الأمر بحكم هذه المعرفة التى يشـــقى فى سبيل الحصول عليها . فالقضية الانسانية الكبيرة التى تعالجها السيرة اذن هى رسم صورة الانسان الباحث عن المعرفة، ودراسة مقارنة بين رحلة ســيف بن ذى يزن فى الجزائر

السبع ومالاقاه من أهوال فيها وما اكتشفه من غرائب وعجائب كالفواكه التى تتحدث كالناس والنباتات التى تنضج فى صورة الآدميين والثمار التى تعود كما كانت بعد أن يشبع آكلها ، وما يصادفه من غيـــلان تقتات بالآدميين ، ومن وحوش غريبة تتبع الشمس فى حركتها وآدميين مشوهى الخلقة لهم عين واحدة مكان العينين .. مقارنة بين هذه الرحلات التى تستغرق جزءا وبعض جزء وبين رحلات السندباد فى ألف ليلة وليلة تجد مــكمن المشابهة فى كلتيهما فى تصوير موقف الانسان الباحث عن الحقيقة المتطلع الى المعرفة .

وليس لنا الا أن نعتبر سيف بن ذى يزن شيئا منفردا بذاته بين باقى السير من ناحية العلاج الفنى وطريقة رسم الأحداث وطريقة رسم شخصية البطل . فهى أحفلهـــا بالخوارق وأكثرها جموحا فى الخيال فى تصوير المجهول وتصوره فى علاج روائى جذاب مع عدم اهمالها لرســم صورة البطل المحارب بالسيف الذى استهوى خيـــال القصاصين فى غيرها من القصص ، ولعلها السيرة الوحيدة التى نشهد فيها حروبا لا بالسيوف ولا بالذكاء والحيلة

وحسب ولكن بعلوم الأقلام والحكمة والسحر أيضا، فهى أقرب الى الخرافات العلمية التى تحاول أن تسبق بخيال الانسان علمه وتجاربه فى استكناه المجهول وتصوير الجوانب الخفية من العالم ، وهى بهذا كما قلنا شىء فريد فى بابه بالنسبة للسير الشعبية بل بالنسبة للأدب العربى بعامة .

فاروق خورشيد

حاشية (١) : ١ - من الدراسات حول هذه السيرة فى المكتبة العربية :

أ - دراسة للماجستير يعدها فى السوربون الآن الأستاذ محسن دراز ، وتتجه - فيما نعلم - اتجاها مقارنا.

ب - فصل من كتاب قصصنا الشعبى للدكتور فؤاد حسنين .

ج - دراسة يعدها الآن الدكتور لويس عوض .

٢ - من الأعمال الأدبية المعاصرة التى استوحت موضوعها من هذه السيرة :

. رواية الوعاء المرمرى للأستاذ محمد فريد أبو حديد ، ولو أن هذه الرواية تعكس صورة سيف بن ذى يزن الملك التاريخى كما يبدو من خلال أخبار الطبرى ، أكثر مما تعكس صورة سيف فى السيرة الشعبية .

٣ ـ ومن المحاولات لتقديم هذه السيرة تقديما معاصرا :

أ ـ سيف بن ذى يزن (صياغة معـاصرة) لفاروق خورشـيد مع مقدمة ودراسـة ، نشرتهـا دار الهلال فى مجلدين ، كما نشرتها المساء مسلسلة •

ب ـ محاولة قدمتها دار المعارف لتقريب السـيرة للأطفال •

ج ـ محاولة قدمها الشـاعر المرحوم بيرم التونسى للاذاعة ولم تنشر •

حاشية (٢) : نحب فى هـذه الحـاشية ان نـذكر لك الدراسات العربية المعاصرة فى أدبنا الشعبى فى غير مادرسنا هنا من السـير لتكتمل لك صورة واضحة لسير الدراسات فيه وتتضح أثاره فى أدبنا المعاصر •

أ ـ (الهلالية فى التاريخ والأدب الشعبى) للدكتور عبد الحميد يونس •

ب ـ (أبو زيد الهـلالى) للأسـتاذ محمـد فهمى عبد اللطيف •

ج ـ (فنون الأدب الشـعبى جزءان) و الفنون الشعبية) للأستاذ أحمد رشدى صالح •

د ـ دراسات عديدة فى الشعر الشعبى للدكتور عبد العزيز الاهوانى •

هـ ـ (الشعر الشعبى العربى) للدكتور حسين نصار

و ـ (فى الروايـــة العربيـــة ـ عصر التجميع) لفاروق خورشيد .

ز ـ (الأدب القصصى عند العرب) للأستاذ موسى سليمان .

فهرس


مطبعة مصر
شركة مساهمة مصرية
بالقاهرة